١

السياسة النبوية

ودولة اللاعنف

حسن بن موسى الصفار

السياسة النبوية
ودولة اللاعنف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

سورة آل عمران: الآية ١٥٩

الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

مقدمة الطبعة الثانية

كان من الطبيعي أن يتفجّر غضب المسلمين في مختلف أنحاء العالم رداً على نشر الرسوم المسيئة لشخصية النبي محمد ﷺ في بعض الصحف الدانمركية والأوربية، ذلك لأنها تشكل اعتداءً على أقدس رمز ديني في نفوس المسلمين، وأغلى وأعز شخصية تنجذب نحوها عقولهم وعواطفهم، وتسري محبتها في شرايين قلوبهم.

فهو الرسول المصطفى والنبي المختار من قبل الله تعالى، ليكون خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، ومبلّغ أفضل الرسالات والشرائع الإلهية للمجتمع الإنساني.

وهو صاحب أنصع سيرة في تاريخ البشر، جسّدت مكارم الأخلاق، والتزمت مبادئ الحق والعدل. وهو المؤسس لكيان هذه الأمة، والباني لحضارتها.

لذلك فإن ارتباط المسلمين برسول الله ﷺ، لا يوازيه أي ارتباط أو علاقة في قوته وعمقه. من هنا تصبح الإساءة لشخصية

رسول الله ﷺ عدواناً صارخاً على هوّية الأمة ووجدانها وتاريخها وحضارتها.

وهذا هو باعث ردات الفعل الغاضبة التي تجاوز بعضها الحدود المقبولة.

لقد أحدثت هذه الإساءة لرسول الله ﷺ وتداعياتها أزمة عالمية كبيرة، انعكست على مختلف الأبعاد السياسية والثقافية والاقتصادية.

وقد كشفت عن عمق الولاء والانتماء في جماهير الأمة الإسلامية لدينها رغم كل الضغوط الموجهة إلى الحالة الدينية في الأمة تحت شعار مكافحة الإرهاب.

كما أظهرت جدّية المساعي لدى بعض الجهات والدوائر لتأزيم العلاقة بين المسلمين والغرب، وإشعال المواجهة بشكل أوسع، تحقيقاً لنظرية صدام الحضارات، وخدمة للموقف الصهيوني.

وتختزن جماهير الأمة من القهر والغضب على مواقف أمريكا والدول الأوربية المعادية لمصالح المسلمين ما يشجع التجاوب مع هذه المساعي، ويدفع نحو المزيد من تصعيد حالة الغضب والمواجهة مع الغرب في أوساط المسلمين.

وفي غمرة الغضب والانفعال والانسياق خلف ردات الفعل تجاه الإساءات المعادية للإسلام والمسلمين، قد ننسى القسط

المتعلق بنا من المسؤولية في حدوث هذه الإساءات، وقد نغفل عن مسار الفعل الإيجابي الذي يجعل الأمة في موقع أفضل مما هي عليه، فتنتزع احترامها وتصون كرامتها بفعل واقعها المتقدم في استقرار أوضاعها الداخلية، وفي مستوى النمو والإنتاج العلمي والتكنولوجي.

إن واقع التخلف الذي تعيشه الأمة، والإصرار على إسباغ الصبغة الإسلامية عليه، والتبرير له والدفاع عنه باسم الدين، هو سبب رئيس في تشكيل الصورة السيئة عن الإسلام في العقل الغربي.

كما أن ممارسة بعض الفئات للعنف والإرهاب تحت عناوين وشعارات إسلامية، وبزعم تحقيق استهدافات إسلامية، أنتج إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين. لذلك فإن من أسوأ الرسومات المشينة ذلك الرسم الذي يصوّر النبي محمد ﷺ معتما بًقنبلة معدّة لعملية تفجير.

ويكمن الجانب الآخر من مسؤوليتنا فيما حدث في قصورنا وتقصيرنا في التعريف بسيرة رسول الله ﷺ وحقيقة شخصيته العظيمة على المستوى العالمي.

فمصادر المعرفة التي يُرجع إليها في الغرب عن الإسلام وعن سيرة رسول الله ﷺ، هي من نتاج كتابات المستشرقين، وغالبها يفتقد الموضوعية والإنصاف، وفيها ما يستحق الثناء

والتقدير، لكن الرائج في الأوساط الغربية في الغالب هو من النوع الأول.

ولم تبذل جهود كافية من قبل الجهات الإسلامية لمناقشة تلك الكتابات المغرضة والخاطئة عن شخصية رسول الله ﷺ وسيرته، ولم تقدم أعمال علمية قادرة على استقطاب المثقف والباحث الغربي بالمستوى المطلوب في عرض الصورة الصحيحة لمفاهيم الإسلام وأحداث العهد النبوي الشريف.

والأغرب من ذلك أن الصور السائدة عن شخصية رسول الله ﷺ في بعض أوساط المسلمين أنفسهم ليست كاملة النقاء، بل هي صورة متأثرة في ملامحها بالتوجهات الفكرية والسياسية الرائجة.

فهناك مرويات كثيرة في السيرة النبوية تحتاج إلى التحقيق للتثبت من صحتها، وحتى الصحيح نقلاً لا بد من نقده متناً أيضاً، كما لا يصح أن يُقرأ الحدث في السيرة النبوية منفصلاً عن سياقه الاجتماعي وظرفه التاريخي.

لذلك فإن التركيز مثلاً على أخبار الغزوات والحروب وموارد استخدام القوة والشدة حيث كانت تتطلبها الظروف في السيرة النبوية، خارج إطار كامل المشروع النبوي، ودون دراسة الخلفيات والأجواء، ومع الإغفال للجوانب الأخرى والموارد التي تتجلى فيها قمة التسامح والعفو والرحمة، وهي الرقعة الأوسع

في السيرة النبوية، هذا الاجتزاء والبتر يعطي الفرصة لرسم صورة غير دقيقة عن شخصية رسول الله ﷺ وإدارته لحركة الدعوة وتكوين الأمة.

إننا بحاجة أكثر للتعرف على مختلف الأبعاد في شخصية رسول الله ﷺ بصورة موضوعية شاملة، لنستلهم منها رؤية تساعدنا في تقويم أوضاعنا وإصلاح واقعنا، ولنستفيد منها دروساً في بناء الحكم الصالح، وإدارة المجتمع المنتج الفاعل، ووضع أسس العلاقات السليمة داخل الأمة، ومع سائر الأمم والمجتمعات.

وهذه الصفحات الماثلة بين يدي القارئ الكريم تحت عنوان (السياسة النبوية ودولة اللاعنف)، هي جهد متواضع لإبراز مبدأ عظيم قامت عليه منهجية رسول الله ﷺ في بناء الأمة وإدارة شئونها، وهو مبدأ التسامح واجتناب العنف السياسي. ذلك أن من أهم أسباب تخلف الأمة خضوعها لسلطة العنف، وانتشار أفكار التشدد والتطرف.

كما إن من أسوأ الدعايات المغرضة ضد نبي الإسلام محمد ﷺ هي اتهامه بالقسوة والعنف وتصويره كداعية للبطش والإرهاب.

بينما تحكي سيرته الشريفة عن أروع مواقف الالتزام باحترام حقوق الإنسان وكرامته، ومراعاة المشاعر والأحاسيس الإنسانية،

وإفاضة العطف والحنان حتى على المناوئين، والاقتصار في استخدام القوة على ما تفرضه الضرورة وتدعو إليه الحاجة الملحة.

والغرض من هذا البحث المتواضع التأكيد على تطلع شعوب الأمة إلى بناء مؤسسة الحكم الصالح القائم على مبدأ الشورى واحترام إرادة الأمة، كما أرسى قواعده رسول الله ﷺ. والإشارة إلى خطأ الصورة المغرضة التي يحاول الأعداء نشرها عن شخصية رسول الله ﷺ ظلماً وعدوانا.

وقد طبع هذا الكتاب قبل عامين (سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) في بيروت، وارتأى بعض الأخوة الكرام إعادة طبعه ونشره للمشاركة في جهود وفعاليات النصرة لرسول الله ﷺ رداً على حملة الإساءة لشخصيته العظيمة.

نسأل الله تعالى أن يثبّت في قلوبنا محبة نبيه الكريم، وأن يوفقنا للتمسك بدينه والالتزام بنهجه، حتى نسعد بذلك في حياتنا ونحظى بشفاعته في آخرتنا، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين.

حسن الصفار

٢٥ صفر ١٤٢٧هـ

٢٥ مارس ٢٠٠٦م

مدخل:
الأمة وتحدي الإصلاح الداخلي

حين يكون الإنسان بالغاً راشداً فإنه يتولى إدارة شؤونه بنفسه، وينظر إليه الآخرون باعتباره كامل الأهلية، تام الصلاحية والاختيار، هو المعني بمصالحه وأوضاعه، ولا دخالة لأحد في خصوصياته. ومن حقه أن يرفض أي تدخل في شؤونه، والقانون والشرع والعرف كلها تؤكد له هذا الحق.

أما إذا كان قاصراً، أو فاقداً للعقل أو الرشد، فإن من المتسالم عليه بين العقلاء: أن يوكل أمر إدارته إلى غيره، كأبيه أو جده لأبيه، أو وصيهما في الولاية عليه، أو إلى السلطة الشرعية.. على اختلاف في التفاصيل ضمن آراء الفقهاء، وفيما بين القوانين الوضعية.

فالتدخل في شؤون القاصر والفاقد لأهلية التعاقد والتصرف المالي أمر مشروع ومطلوب، لحفظ مصلحته ورعاية مستقبله أولاً، ولحماية المصلحة العامة ثانياً.

فإنه لو ترك وشأنه لأضاع مصالحه، وأضر بها، بسبب نقصه وقصوره، وباعتباره عضواً في المجتمع، وإمكانياته وثروته جزء من رصيد المجتمع، فإن سوء تصرفاته تنعكس سلباً على المصلحة العامة.

وهذا ما أشار إليه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[١] قال السيد الطباطبائي في الميزان: «السفه خفة العقل.. والمراد بقوله ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أموال اليتامى، وإنما أضيفت إلى الأولياء المخاطبين بعناية أن مجموع المال والثروة الموجودة في الدنيا لمجموع أهلها.. فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقة ويعلموا أنهم مجتمع واحد والمال كله لمجتمعهم، وعلى كل واحد أن يكلأه ويتحفظ به، ولا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهة، وتدبير من لا يحسن التدبير كالصغير والمجنون...»[٢].

فالتدخل في شؤون القاصرين والفاقدين للرشد أمر مبرر مقبول، بينما التدخل في شؤون العقلاء الراشدين مدان مرفوض.

هذه القاعدة كما تنطبق على مستوى الأفراد، فإنها تنطبق بشكل أو بآخر على مستوى الشعوب والمجتمعات، فإن المجتمع الذي يعيش وضعاً سوياً، ضمن الأعراف والقوانين الدولية، لا أحد

(١) سورة النساء: آية ٥.
(٢) الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٤ ص١٧٦.

يجيز لنفسه التدخل في شؤونه، بل إن من المتفق عليه في النظام الدولي: إدانة التدخل في شؤون أي بلد آخر.

أما إذا خضع مجتمع ما لحالة غير سوية في إدارته السياسية والاجتماعية، بأن سيطر عليه واقع من الظلم والفساد الذي لا يحتمل، فإن ذلك يعطي المبررات والدوافع للجهات الأخرى، من مؤسسات دولية وقوى عالمية، لكي تتدخل في أوضاعه وشؤونه، بغض النظر عن نواياها ومقاصدها.

فقد يبرر التدخل بالدوافع الإنسانية، كمساعدة ذلك المجتمع على التحرر والخلاص من واقع الظلم والفساد. كما تحدث أحد قادة الفتح الإسلامي لفارس، وهو ربعي ابن عامر، حينما سأله رستم القائد العسكري الفارسي: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١].

وكما تحدثت قرارات الأمم المتحدة الصادرة في تاريخها حول الأوضاع الداخلية لبعض الشعوب.

وقد يبرر التدخل بحفظ المصالح الدولية وحماية الأمن والاستقرار العالمي، على أساس أن الوضع الشاذ في أي بلد من العالم، ينتج آثاراً سلبية على المستوى الدولي، ويضر بمصالح البلدان الأخرى.

---

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج٣ ص٣٤.

ومن المؤسف جداً أن تكون الأوضاع الداخلية لشعوب الأمة الإسلامية، هي الساحة التي تتبارى مختلف القوى العالمية لإبداء الرأي حولها، وطرح المشاريع لتغيير واقعها، وصياغة مستقبلها، فهناك المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الكبير، وهناك مقترحات الاتحاد الأوربي، كما ناقشت قمة قادة دول مجموعة الثماني الصناعية الكبرى، التي عقدت في (سي آيلاند بجورجيا) في التاسع من شهر يونيو ٢٠٠٤م، خطة (إصلاح الشرق الأوسط الأوسع وشمال أفريقيا).

ويجري الحديث عن إصلاح الشرق الأوسط بعد تدخلين عسكريين دوليين في بلدين إسلاميين أطاحا بحكومتهما، هما أفغانستان والعراق، حيث قادت الولايات المتحدة الأمريكية تحالفاً دولياً لإسقاط حكم طالبان في أفغانستان سنة ٢٠٠١م ثم قادت تحالفاً آخر وأطاحت بنظام صدام في العراق سنة ٢٠٠٣م.

فلماذا يدور الحديث عند الآخرين عن إصلاح أوضاع البلدان العربية والإسلامية؟

إن أحداً في العالم لا يتحدث عن إصلاح أوضاع اليابان أو الهند أو الدول الأوربية أو غيرها، بينما تنعقد المؤتمرات وتطرح المشاريع لإصلاح أوضاع البلاد الإسلامية. فهل يعني ذلك أن العالم يعتبرنا في حالة قصور ونقصان في الأهلية للاستقلال بشؤوننا، مما يستدعي رعاية الآخرين وتدخلهم؟

ولا يبدو أن هناك اعتراضاً من قادة الدول الإسلامية على الحاجة إلى الإصلاح فيها، فهم يعترفون بذلك، ويتناولونه في خطابهم السياسي.

إن سوء الأوضاع الداخلية للأمة قد تفاقم إلى حد لا يقبل الإنكار والتبرير، كما تجاوزت آثاره ومضاعفاته حدود الأمة إلى المستوى الدولي، عبر ظاهرة الإرهاب العابر للقارات والمنتسب للإسلام والمسلمين، وعبر التجاوزات والانتهاكات لحقوق الإنسان، وتدني مستوى المشاركة الشعبية والحريات العامة، والتخلف العلمي والاقتصادي.

* * * *

وقد رسم تقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعامي ٢٠٠٢/٢٠٠٣م صورة موضوعية عن واقع التخلف الذي يعيشه العالم العربي، وقد وضع التقرير فريق من المفكرين العرب البارزين، ورغم أن هناك جدلاً حول موضوعية التقرير من قبل بعض الجهات، واتهامه بالمبالغة في رسم صورة قاتمة، إلا أن ما ورد في التقرير يبدو أقل مما يشعر به المحتكون بمعاناة الواقع المعاش.

فعلى صعيد الحالة المعرفية أشار تقرير ٢٠٠٣م إلى انخفاض عدد الصحف في البلدان العربية إلى أقل من ٥٣ لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع ٢٨٥ لكل ١٠٠٠ شخص في الدول المتقدمة.

وأن الصحافة في أغلب البلدان العربية محكومة ببيئة تتسم بالتقييد الشديد لحرية الصحافة والتعبير عن الرأي.

أما عدد خطوط الهاتف في الدول العربية فلا تصل إلى خمس نظيرها في الدول المتقدمة. وهناك أقل من ١٨ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص في المنطقة، مقارنة مع المتوسط العالمي وهو ٧٨,٣ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص. ويقتصر عدد مستخدمي الإنترنت على ١,٦٪ فقط من سكان الوطن العربي.

ويبلغ عدد الأميين من البالغين العرب حوالي ٦٥ مليونا، ثلثاهما من النساء، ومعدلات الأمية أعلى كثيراً مما هي عليه في بلدان أفقر كثيراً من البلدان العربية. ويوجد حالياً نحو ١٠ ملايين طفل تتراوح أعمارهم من ست إلى خمس عشرة سنة غير ملتحقين بالمدارس.

ولا يزيد عدد العلماء والمهندسين العاملين بالبحث والتطوير في البلدان العربية على ٣٧١ لكل مليون من السكان، وهو أقل بكثير من المعدل العالمي البالغ ٩٧٩ لكل مليون من السكان. وبينما تتراوح نسبة الإنفاق على البحث والتطوير في البلدان المتقدمة بين ٢,٥٪ إلى ٥٪ من الناتج القومي فإنها لا تتجاوز ٠,٢٪ في البلدان العربية.

يعد تمويل البحث في العالم العربي من أكثر المستويات انخفاضاً في العالم فقد بلغ معدل الإنفاق العلمي نسبة إلى الناتج

المحلي الإجمالي ٠,١٤٪ فقط في العالم العربي عام ١٩٩٦م مقابل ٢,٥٣٪ عام ١٩٩٤م لإسرائيل و ٢,٩٪ لليابان و١,٦٢٪ لكوبا.

ورغم أن العرب يشكلون ٥٪ من سكان العالم إلا أن إنتاج الكتب في العالم العربي لم يتجاوز ١,١٪ من الإنتاج العالمي.

وعلى الرغم من وجود ٢٨٤ مليون عربي في ٢٢ دولة يتراوح العدد المعتاد لنشر أية رواية أو مجموعة قصص قصيرة ما بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسخة ويعتبر الكتاب الذي يوزع منه ٥٠٠٠ نسخة ناجحاً نجاحاً باهرا.

ويعامل الكتاب العربي في كثير من الأحيان كأنه سلعة محظورة ويخضع لإجراءات رقابية وبيروقراطية تعرقل حركة النشر وتفرض تلك الإجراءات على المؤلف والناشر مراعاة أمزجة أو تعليمات ٢٢ رقيباً عربيا!!

أما الكتب المترجمة فأرقامها هزيلة للغاية، فالعالم العربي يترجم سنوياً ما يقرب من ٣٣٠ كتاباً، وهو خمس ما تترجمه اليونان، والإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يبلغ ١٠٠,٠٠٠ كتاب، وهو ما يوازي تقريبا ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

وتحدث التقرير عن تنامي ظاهرة هجرة الأدمغة العربية مما يعني خسارة كلفة إعدادها، كما تمثل فرصاً مضاعة من الإسهام في التنمية. فمن أصل ٣٠٠,٠٠٠ من خريجي المرحلة الجامعية الأولى

من الجامعات العربية في العام الدراسي ١٩٩٥/ ١٩٩٦م يقدر أن نحو ٢٥٪ هاجروا إلى أمريكا الشمالية ودول السوق الأوربية، وبين عامي ١٩٩٨ و ٢٠٠٠م غادر أكثر من ١٥٠٠٠ طبيب عربي إلى الخارج. ويقدر أنه بحلول العام ١٩٧٦ كان قد غادر البلدان العربية نحو ٢٣٪ من المهندسين و٥٠٪ من الأطباء و١٥٪ من حملة الشهادات الجامعية الأولى.

* * * *

وعلى المستوى السياسي، ليس يخفى على أحد أن جملة البلدان العربية، قد خضعت منذ عهود الاستقلال، إلى أنظمة سياسية لم تستطع أن تتخلى عن نزعات الاستبداد المنحدرة من عصور التاريخ القديمة والمتأخرة، فظل هامش الحريات محدوداً في مواطن، أو غائباً تماماً في مواطن أخرى.

وساهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الانجاز والسعادة والانتماء، ولذا نلاحظ سيادة الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المساهمة في إحداث التغيير المنشود في الوطن.

وعلى صعيد الحريات المدنية السياسية يشير التقرير إلى أن الاتجاه في عموم البلدان العربية كان هابطاً إلى أدنى مستوى من التمتع بالحريات بين مناطق العالم المعتبرة. كما تحتل المنطقة العربية أدنى مستويات التمثيل والمساءلة كأهم أركان الحكم الصالح بين مناطق العالم.

إن أكثر من بلد عربي يخضع لقانون الطوارئ منذ سنوات ويقدم فيه المدنيون للمحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة (الاستثنائية).

ويمنع قيام منظمات المجتمع المدني في أغلب البلدان الإسلامية.

* * * *

على الصعيد الاقتصادي وخلافاً للوهم الشائع بغنى العرب فإن حجم الناتج الاقتصادي العربي لاثنين وعشرين دولة عربية في نهاية القرن العشرين ٢٠٠٠م (٦٠٤ مليار دولار) يتعدى بالكاد ناتج دولة أوربية واحدة مثل أسبانيا (٥٥٩ مليار دولار) ولا يصل إلى ناتج دولة أخرى مثل إيطاليا (١٠٧٤ مليار دولار).

وهناك انخفاض واضح في مستوى الإنتاجية في المجتمعات العربية، لقد كان الناتج العربي للفرد يصل إلى نصف نظيره في شرق آسيا عام ١٩٧٠م وبحلول عام ٢٠٠١م أصبح الناتج العربي للفرد يقل عن سُبع نظيره في شرق آسيا للتحسن الكبير في أداء تلك الدول اقتصادياً في مقابل تراجعه عربياً.

وتشير بيانات البنك الدولي ١٩٩٨م إلى أن الناتج القومي الإجمالي للفرد في قوة العمل يقل في مجمل البلدان العربية عن نصف مستواه في بلدين ناهضين في العالم الثالث، واحد في آسيا (كوريا الجنوبية) والثاني في أمريكا اللاتينية (الأرجنتين).

فالإنتاجية في الدول العربية التسع الأغنى بالموارد النفطية، تتعدى بالكاد نصف الناتج للعامل في بلدي المقارنة (كوريا الجنوبية ـ الأرجنتين) بينما ينخفض مؤشر الإنتاجية في البلدان العربية متوسطة الثراء النفطي (تونس ـ سوريا ـ مصر. .) إلى حوالي سُدس بلدي المقارنة، وفي الدول العربية الأفقر نفطياً مثل (الأردن والسودان واليمن ولبنان) إلى أقل من العُشر. ويعني ذلك أن استبعاد تأثير ريع النفط سيقلل من الإنتاجية في الاقتصاديات العربية إلى مدى أبعد مما تظهره المقارنة.

وبينما فاق معدل نمو الإنتاجية ١٥٪ في الصين و٨٪ في كوريا، و٦٪ في الهند، لم يتعد معدل نمو الإنتاجية في أفضل البلدان العربية أداءً ٤٪ حيث وصل إلى ٤.٣٪ في عمان ومصر، ٣.٢٪ في تونس وموريتانيا والمغرب، ٢.١٪ في الأردن والجزائر، وأقل من ١٪ في الإمارات والسعودية.

وينقل التقرير عن (مؤسسة الشفافية الدولية) لعام ٢٠٠٢م أن مؤشر الانطباع عن الفساد في معاملات الأعمال في العالم العربي يرتفع إلى الحد الأكثر فساداً.

ويبلغ نسبة البطالة في البلدان العربية ١٥٪ وهي من أعلى النسب في العالم، والبطالة مأساة للتنمية الإنسانية وعبء على التقدم الاقتصادي.

وتتراوح تقديرات نسبة الفقر في مصر مثلاً في منتصف

التسعينيات حوالي ٣٠ ـ ٤٠٪ وفي الأردن ٢١٪ وفي اليمن ٣٠٪ وفي جيبوتي ٤٥٪ وفي السودان ٨٥٪.

إن أكثر من نصف النساء العربيات لا يزلن أميّات، وإن معدل وفيات الأمهات أثناء فترة الولادة في المنطقة هو ضعف معدلها في أمريكا اللاتينية والكاريبي، وأربعة أضعاف معدلها في شرق آسيا.

كما تعاني النساء في بعض البلدان العربية من عدم المساواة في المواطنة، وفي الحقوق القانونية، التي غالباً ما تتجلى في حرمانها من حقها في التصويت والانتخاب، ولا تزال الاستفادة من قدرات المرأة العربية من خلال المشاركة السياسية والاقتصادية هي الأقل في العالم.

تصنف البلدان على أساس قاعدة (بوردا) إلى بلدان تتمتع بمستوى رفاه إنساني مرتفع، وبلدان تتمتع بمستوى رفاه إنساني متوسط، وبلدان ذات مستوى رفاه إنساني منخفض، واستناداً إلى هذا التصنيف لا يتمتع أي بلد عربي بمستوى رفاه إنساني مرتفع، وتتمتع سبعة بلدان عربية يشكل سكانها ٨,٩٪ فقط من العالم العربي بمستوى رفاه إنساني متوسط، وأما البلدان العربية التي يشكل سكانها ٩١,١٪ من العالم العربي فإنهم يعانون من تنمية بشرية متدنية ينخفض فيها مستوى الرفاه.

* * * *

إن هذا الواقع المتخلف الذي تعيشه المجتمعات العربية

والإسلامية قد أصبح مصدر قلق وإزعاج على المستوى العالمي، لما يفرز من بؤر توتر واضطراب، تتمثل في توجهات العنف والإرهاب، وتيارات التعصب والتطرف، والتي امتدت أنشطتها وممارستها الخطيرة إلى مختلف بقاع العالم، كأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا، وتفجيرات قطار مدريد ٢٠٠٤م وتفجيرات جزيرة بالي في اندونيسيا ٢٠٠٢م والتهديدات المستمرة في مختلف بلدان العالم.

ومن تداعيات هذا الواقع تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين واللاجئين نحو الدول المتقدمة، وحسب ما أفاده الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي عبدالواحد بلقريز في الاجتماع الأخير للمنظمة في اسطنبول، فإن ٧٠٪ من اللاجئين في العالم من المسلمين[١].

كما أن سيطرة حالة الفقر والركود الاقتصادي على هذه المساحة البشرية الواسعة لا يخدم تقدم الاقتصاد العالمي.

إن هذا الواقع لم يعد مقبولاً على المستوى الدولي، وهو مخالف لحركة البشرية نحو التطور والتقدم، فلابد من حصول تغيير وإصلاح من داخل الأمة لواقعها السياسي والاجتماعي، وإلا فإن المجتمع الدولي لن يسكت على هذا الواقع طويلا.

* * * *

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن، ١٥/٦/٢٠٠٤م.

لقد تجاوزت البشرية ظاهرة الرق والاستعباد، التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم، ومن بدايات التاريخ البشري، بسبب الحروب والصراعات، وحوادث الخطف ووجود تشريعات قديمة تفرضه عقوبة على بعض الجرائم، ثم جاءت أعمال القرصنة الأوربية منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، على شكل غارات وحملات خطف منظمة لأبناء القارة الأفريقية، ونقلهم إلى أمريكا الشمالية ومناطق أوربا لبيعهم كعبيد أرقاء.

إلى أن شهد أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدايات التوجه لإلغاء الرق وتحرير العبيد، حيث أصدر مجلس الثورة الفرنسي سنة ١٧٩١م قراراً بإلغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية، ومساواة جميع من فيها في الحقوق والواجبات مع تمتعهم بالجنسية الفرنسية.

لكن حين تولى نابليون الحكم، لاحظ انخفاض صادرات المستعمرات الفرنسية التي تعتمد على اليد العاملة الزنجية، فأصدر قراراً عام ١٨٠٢م بالعودة إلى استرقاق الزنوج، فثار الزنوج في المستعمرات وقاوموا مدة ثلاث سنوات فقضى نابليون على ثورتهم وأعادهم إلى الرق.

وفي عام ١٨٨٤م صدر قرار في فرنسا بإلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية تماشياً مع قرارات مشابهة اتخذتها بريطانية والبرتغال، وهولندا والدنمارك.

وأصدر ابراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٦٣م إعلاناً بتحرير الرقيق، وكان ذلك من أسباب اغتياله عام ١٨٦٥م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقّعت الدول المشتركة في عصبة الأمم عام ١٩٢٦م اتفاقية تقضي بملاحقة تجارة الرق والمعاقبة عليها، والعمل على إلغاء الرقيق بجميع صوره، وفي عام ١٩٤٨م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلاناً عالمياً تضمن حظر الرق وتجارة الرقيق[١]، وهكذا انتهى الرق وتخلصت البشرية من مآسيه.

* * * *

ثم تجاوزت البشرية ظاهرة الاستعمار، والتي عانت منها أكثر شعوب العالم منذ القرن الثامن عشر الميلادي، حيث زحفت موجات بشرية من الأوربيين لتستوطن بلداناً كثيرة، أو تستولي عليها عسكرياً، لتتحكم في أمورها وتسيطر على مقدراتها.

وبعد أن تحركت الشعوب رافضة ثائرة، وتصاعدت مقاومتها للاستعمار، تجاوبت معها الجهود الدولية العالمية، وأصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٦٠م قراراً تضمن مبدأ منح شعوب العالم غير المستقلة حق تقرير المصير. وأيدت هذا الاتجاه مؤتمرات دول عدم الانحياز. وفي نوفمبر

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج١١ ص٢٥٨.

١٩٦١م أنشأت الأمم المتحدة لجنة خاصة لتصفية الاستعمار، ووافقت على إنشاء هذه اللجنة جميع الدول الأعضاء باستثناء بريطانيا والبرتغال وجنوب أفريقيا[١].

وأخيراً تجاوزت البشرية ظاهرة الاستعمار وانسحبت بريطانيا من جميع مستعمراتها، وانتهى الحكم العنصري في جنوب أفريقيا ولم يبق إلا الاحتلال الصهيوني، وتعويقه لإرادة الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال.

وتجد البشرية نفسها الآن في معركة التخلص من الاستبداد والذي يعني إلغاء دور الناس ومشاركتهم في القرار السياسي، وفي تسيير شؤون حياتهم، لحساب فرد أو فئة تمسك بأزمة السلطة والحكم.

لقد تجاوزت أغلب شعوب العالم هذه الحالة وأصبحت تتمتع بميزات النظام الديمقراطي الذي يتيح لهم المشاركة السياسية، وحرية التعبير والرأي، ويفتح مجال التداول السلمي للسلطة، لكن المجتمعات الإسلامية في معظمها محرومة من هذه الفرص، وتعيش معاناة احتكار القرار، وما يستتبعه من تهميش لإرادة الناس، واستئثار بمقدراتهم.

وذلك سبب رئيس في تكريس واقع التخلف، وإفراز حالات العنف، وتفشي مظاهر الفقر والفساد.

---

(١) الكيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج١ ص١٧٤.

وكما تجاوزت البشرية ظاهرة الرق، وظاهرة الاستعمار، بعد كفاح ونضال عالمي، فإنها ستتجاوز ظاهرة الاستبداد في هذه الحقبة من الزمن.

إن رقعة الديمقراطية تتسع عالمياً يوماً بعد آخر، وقد أصبحت الخيار الذي تتطلع إليه جميع الشعوب، وإذا كانت مصالح بعض الدول الكبرى ذات يوم تقتضي دعم أنظمة الاستبداد، فقد تغيّرت المعادلة الآن بفضل تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وأصبح الاستبداد عائقاً أمام حركة الاقتصاد، وقطار العولمة الشاملة.

بالتأكيد فإن بعض القوى الدولية والإقليمية ستبقى مدافعة عن الاستبداد حتى آخر لحظة، كما كان هناك من أصر على التمسك بنظام الرق، واستمرار الهيمنة الاستعمارية. لكن ذلك اتجاهاً مخالفاً لحركة التاريخ، وتطور المجتمعات البشرية لا يمكن استمراره ولا صموده.

والحديث هنا عن الديمقراطية باعتبارها آلية لتحقيق المشاركة الشعبية، والتداول السلمي للسلطة، وتوفير حرية التعبير عن الرأي، ولا اعتراض للإسلام على هذه المضامين، كما لا يحظر أية آلية مناسبة لتحقيقها، ولسنا ملزمين بحرفية تجارب الشعوب الأخرى، بل يمكننا الاستفادة من المناهج والأساليب بما لا يتعارض مع ثوابت الدين.

ومن المؤسف أن تتركز حالة الممانعة للمسار الديمقراطي في

المنطقة العربية والإسلامية، وأن تتعنون ممارسات الإرهاب والعنف باسم الأمة والإسلام.

مما فسح المجال للحديث عن صدام الحضارات، وإظهار الإسلام كعائق لتقدم أتباعه ولاستقرار العالم، وأصبح ذلك مبرراً لكي تبحث المؤسسات الدولية والقوى العالمية واقع هذه المنطقة، وتطرح الحلول والمشاريع لتغييره وإصلاحه.

ومن أخطر القضايا المثارة في هذا السياق هو التمترس بالإسلام لتبرير واقع الاستبداد من جهة، ولتسويغ ممارسات الإرهاب والعنف من جهة أخرى. فالديمقراطية مخالفة للإسلام، والمجتمعات الإسلامية لها خصوصيتها، والجهاد ضد الكفار فريضة، وإرهاب الأعداء واجب.

ومما يساعد على ترويج هذه الأقوال اتصاف المساحة الأوسع من تاريخ المسلمين بسمة الاستبداد، حيث كان الأمويون والعباسيون والعثمانيون يحتكرون السلطة ويتداولونها وراثياً بالقوة والغلبة، وكان إلى جانبهم فقهاء يمنحونهم الشرعية الدينية.

فهناك جذور تاريخية للاستبداد ومدرسة دينية لتأصيله وتشريعه.

لكن الباحث الموضوعي يستطيع أن يفصل بين الواقع التاريخي السيئ للمسلمين، وبين حقيقة مفاهيم الإسلام وتشريعاته. ووجود مسار آخر في التاريخ الإسلامي يعارض ما كان قائما، ويبشر بقيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان برؤية دينية واعية، يؤكد مصداقية هذا الفرز المطلوب.

والدليل الأوثق والأصدق يتجلى في سيرة رسول الله ﷺ، فإذا كان النص الديني يحتمل أكثر من قراءة وتفسير، وإذا كان رأي الفقيه قابلاً للأخذ والردّ، فان سيرة رسول الله ﷺ وممارسته الفعلية لإدارة المجتمع الإسلامي الأول، تقدم الصورة الصحيحة الواضحة التي لا لبس فيها عن رؤية الإسلام ومنهجه في السياسة والحكم.

ولا أدري لماذا يستغرق البعض في الاهتمام بقضايا جانبية من السيرة النبوية، ويتغافل عن النهج السياسي والاجتماعي الذي اعتمده الرسول ﷺ في إدارة الأمة وتسيير شؤونها؟

إن القراءة الواعية للسيرة النبوية الشريفة في هذا السياق يمكنها أن تساعد الأمة في تجاوز آثار تاريخ الاستبداد، وفي مواجهة الآراء المحافظة المتزمتة، كما تؤصل لتوجهات الإصلاح والتطوير.

وصفحات هذا الكتاب المتواضع تحمل إشارات وقبسات من السيرة النبوية في نهج التعامل مع الأمة وإدارة شؤونها، كتبتها وألقيتها في بعض مناسبات الاحتفاء بذكرى المولد النبوي الشريف، ثم رأيت جمعها وتقديمها للقارئ العزيز عسى أن يكون فيها ما يسهم في إنارة الطريق وإثارة الوعي. والله تعالى من وراء القصد. والحمد لله رب العالمين.

دولة اللاعنف

قد يحلو لأي قائد أن يحظى بالولاء المطلق ممن حوله، وأن تكون استجابتهم كاملة لآرائه وأوامره، فلا ينشغل باله برأي مخالف، ولا يُعرقل شيئاً من خططه وبرامجه موقف معارض.

لكن ذلك مما يستحيل حصوله عادة في المجتمعات البشرية، فمن يتصدى للقيادة والزعامة ـ دينية أو سياسية ـ، لا يعدم مناوئاً أو مخالفاً أو منافساً، والامتحان الحقيقي لأي قيادة هو في التعامل مع مثل هذه الحالات.

إن النهج السائد المتبع عند الزعامات السياسية والدينية في المجتمعات غير الديمقراطية، هو رفض هذه الحالات وقمعها، بمختلف العناوين والمبررات، كالحكم عليها بالكفر والمروق، أو إدانتها بالخيانة والانشقاق، أو اتهامها بالإفساد والتخريب.

وينبثق هذا النهج من عقلية الاستبداد، وتضخّم الذات، وحب الهيمنة والاستحواذ، ويؤدي إلى تهميش المجتمع، ووأد طاقاته وكفاءاته، كما يؤسس لحالات الانقسام والمواجهة والصراع.

والنبي ﷺ كقيادة دينية سياسية، واجه هذه الحالات داخل مجتمعه الذي أسسه وكان يقوده، فكيف كان منهج تعامله معها؟

إن الحديث ليس عن الأعداء المناوئين من خارج المجتمع الإسلامي، كاليهود والكفار، فمعاناة النبي ﷺ منهم، ومواجهته لهم، وحروبه معهم، معروفة واضحة.

إنما الحديث عن التيارات المناوئة، والعناصر المخالفة، داخل المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة.

حيث تشير آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الشريفة، وروايات السيرة النبوية، إلى وجود مثل تلك التيارات والعناصر.

إن الخطاب الإسلامي غالباً ما يركز على صور الاستجابة والإذعان من قبل الصحابة لرسول الله ﷺ، وهي بلا شك صور رائعة مشرقة، تدّل على عمق محبة رسول الله ﷺ في قلوب أتباعه، وصدق إيمانهم به، وشدة تأثرهم بشخصيته، حتى قال أبو سفيان بن حرب وهو في موقع المناوأة والمواجهة لرسول الله ﷺ: «ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً»(١).

لكن هذا ينطبق على الصحابة الصادقين المخلصين، وليس على كل أفراد المجتمع المحيط برسول الله ﷺ، حيث يؤكد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٩١.

القرآن الكريم وجود تيار داخل المجتمع الإسلامي يضمر العداء للإسلام، ويثير المتاعب في وجه رسول الله ﷺ، هو تيار المنافقين. يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[١].

والصادقون في إسلامهم مع رسول الله ﷺ لم يكونوا ملائكة، ولا معصومين، لا تصدر من أحد منهم مخالفة أو معارضة، بل كانوا بشراً معرّضين لحالات الجهل والغفلة، وسيطرة الانفعالات العاطفية، والاندفاعات المصلحية، خاصة وأنهم حديثو عهد بالانتماء إلى الدين، ومن الطبيعي أن تبقى في النفوس رواسب وآثار من الحقبة الجاهلية.

لكل ذلك واجه رسول الله ﷺ من بعضهم مواقف مخالفة، وتصرفات مزعجة، وذاك أمر متوقع، ويهمنا في هذا البحث أن نتعرف على منهج رسول الله ﷺ في التعاطي مع حالات المعارضة والخلاف، سواء كانت ناتجة عن توجه عدائي مناوئ للدعوة، كما هو حال المنافقين، أو عن خطأ وسوء تصرف من قبل بعض المسلمين.

---

(١) سورة التوبة: آية ١٠١.

المنافقون والدور الخطير

استقطب الإسلام أبناء قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة، والتفوا حول رسول الله ﷺ حينما هاجر إليهم، وخضعوا لقيادته، ثم التحق بهم المسلمون من أبناء مكة وغيرهم، فتأسس في المدينة مجتمع جديد، بقيادة جديدة، خارج نسق الانتماءات القبلية.

لكن بعض العناصر وخاصة من طبقة الأثرياء والنافذين، لم تذعن قلوبهم للإسلام، ورأوا في قيادته وتعاليمه إلغاءً لنفوذهم، وتحجيماً لمصالحهم، في ذات الوقت لم يكونوا قادرين على الوقوف أمام التيار الكاسح، فأظهروا الولاء للإسلام والخضوع لقيادته، بينما كانوا يضمرون غير ذلك.

وأطلق القرآن الكريم على هذه الازدواجية عنوان (النفاق)، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به. كما يقول ابن منظور في لسان العرب.

والنفاق مأخوذ من النَفَق وهو: سَرَب في الأرض مشتق إلى موضع آخر.

وفي التهذيب: له مخلص إلى مكان آخر.

قال أبو عبيد: سمي المنافق منافقاً للنفق وهو السرب في الأرض، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.

وقيل إنه مأخوذ من السرب باعتبار الاستتار فيه لستره كفره[١].

وكلا الاعتبارين متوفر في حال النفاق، فهو إظهار الإسلام كغطاء وستار لواقع الكفر، يشبه استتار النفق تحت الأرض، وهو اتخاذ الإسلام معبراً وطريقاً وليس قصداً وغاية، كاستخدام النفق للولوج فيه من جهة والخروج من الجهة الأخرى.

كانت هذه العناصر تنتمي إلى قبائل المدينة، وبعضها من قبائل البادية المحيطة بالمدينة، كما يذكر القرآن الكريم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، وإذا كان المنافقون من قبائل الأعراب في البادية يمارسون نفاقهم بشيء من البساطة، فإن منافقي المدينة قد تكرست عندهم خبرة النفاق ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي مرنوا عليه ودربوا به، ومنه الشيطان المارد في الشيطنة.

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ج٦ ص٦٩٤.

وأغلب المنافقين كانوا من ذوي الثروة والنفوذ، أو الطامحين للزعامة والمواقع، كما يظهر من حديث القرآن الكريم عنهم (إن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب، تلهم روحاً أو مضموناً، أو روحاً ومضموناً في آن واحد، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلاً أو كثيراً، بل إننا لنكاد نقول استلهاماً من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنّما انساقوا فيها بتأثير أولئك، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم، أو من ناحية الإغراء والمنفعة)[١]، ومن أبرزهم عبدالله ابُن أبي بن سلول الخزرجي، وكان مرشحاً لتولي زعامة المدينة قبل الإسلام، وكذلك الجدّ بن قيس وكان زعيماً في قومه بني سلمة.

هذه العناصر بمكانتها القبلية، ولتسترها بالإسلام، واستغلالها للمشاعر العاطفية، وآثار العهد الجاهلي ورواسبه في النفوس، امتلكت مساحة من التأثير في المجتمع، ويشير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[٢] إلى انقسام الرأي في المجتمع الإسلامي حول المنافقين ومواقفهم، فهناك من كان يحسن الظن بهم، ويدافع

(١) دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ، ج٢ ص٧٩.
(٢) سورة النساء: آية ٨٨.

عنهم، انطلاقاً من العصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة، أو من وحي البساطة والانخداع، وطلب مزيد من الفرصة لهم للهداية والإصلاح.

ويكفي لمعرفة حجم تأثيرهم ما ينقله التاريخ من أن زعيمهم عبدالله بن أبي حينما انسحب من جيش المسلمين في الطريق إلى أحد، انسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي حوالي ثلث الجيش الإسلامي، وكاد أن يؤثر على بني حارثة من الأوس، وبني سلمة من الخزرج، لينسحبوا معه.

وحصل مثل ذلك في غزوة تبوك حيث انسحب عبدالله ابُن أبي ومعه عدد غير قليل من مؤيديه، حتى قال ابن إسحاق إن المعسكر الذي انسحب مع ابن أبي ليس بأقل العسكرين[١]، أي أنه يوازي المعسكر الذي قاده رسول الله ﷺ، ولعل في هذه الرواية شيئاً من المبالغة، لكنها تعبر عن حجم هذا التيار.

بيد أن الأهم إدراك مدى خطورة هذا التيار على مسيرة الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي، فقد لعب دوراً خطيراً، وخاصة في مرحلة التأسيس، حيث كانت تحيط بالتجربة أخطار هائلة، وكان عود الإسلام غضاً طرياً، بعد لم تتمكن قيمه ومفاهيمه من القلوب والنفوس.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤ ص١٧٣.

من مواقف التآمر والعداء

إن كثرة الآيات القرآنية التي تتحدث عن النفاق والمنافقين، وتسلط الأضواء على مواقفهم وصفاتهم، حتى لا تكاد تخلو منها سورة مدنية، لتكشف عن مستوى الخطورة التي كانوا يمثلونها.

١ ـ فقد لعبوا دور الطابور الخامس داخل المجتمع لصالح مخططات الأعداء الخارجيين، كاليهود والمشركين، حيث كانوا يتواصلون معهم، ويشجعونهم على محاربة الإسلام، وينسقون معهم الجهود والمواقف.

إنهم جزء من المجتمع ظاهراً، لكن ولاءهم ليس للمجتمع، إنما هو لأعدائه، يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فهم يخادعون المجتمع بإظهار انتمائهم إليه، بينما هم حلفاء للقوى المعادية، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[2]، وشياطينهم هنا هم اليهود كما يقول المفسرون.

وحينما حاصر المسلمون يهود بني النضير بعد خياناتهم المتكررة، كان عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين، يتواصلون مع

---

(١) سورة النساء: آية ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) سورة البقرة: آية ١٤.

بني النضير لتشجيعهم على المقاومة والصمود، ولرفع معنوياتهم، مؤكدين تحالفهم وتضامنهم معهم. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[1].

وواضح خطورة مثل هذا الدور في مجتمع يعيش حالة حرب ودفاع، ويحيط به الأعداء من كل جهة.

٢ ـ وهناك دور أخطر يتمثل في سعيهم المحموم لإضعاف الجبهة الداخلية، ببث الشكوك تجاه الدين وقيادة الرسول ﷺ، وقد سجل القرآن الكريم بعض صور إشاعاتهم وأراجيفهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾[2].

وصورة أخرى تنقلها الآية الكريمة: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[3]. ويسجل القرآن الكريم عنهم قولهم في غزوة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[4].

٣ ـ كانوا يسخرون من شخصية رسول الله ﷺ بصورة

---

(١) سورة الحشر: آية ١١.
(٢) سورة التوبة: آية ١٢٤.
(٣) سورة الأنفال: آية ٤٩.
(٤) سورة الأحزاب: آية ١٢.

مؤذية، ويصفونه بالسذاجة والبساطة، وأنه يسمع ويقبل كل ما يقال له دون وعي وتمييز، كما نقل ذلك عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[1].

وكانوا يشككون في سياساته الاقتصادية، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[2]، واللمز القدح والاعابة.

٤ ـ ووصل بهم الأمر إلى الطعن في عرض رسول الله ﷺ واتهام عفة زوجاته، وذلك في حادثة (الإفك) التي ذكرها القرآن الكريم، وجاء في كتب السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما قفل راجعاً من غزوة بني المصطلق، وفي آخر مرحلة من الطريق تأخرت زوجته عائشة لطلب عقد افتقدته، فظنوها في هودجها وسارت القافلة عنها، فلما وصلوا المدينة لم يجدوها في الهودج، فمر بها صفوان بن المعطل وأركبها على ناقته، وجاء يقودها إلى المدينة، فوجد عبدالله ابن أبي الفرصة سانحة للطعن في عرض رسول الله ﷺ فقال: «والله ما نجت منه ولا نجا منها» وتلقف قوله أصحابه فأشاعوه، وتأثر رسول الله لذلك حتى نزل الوحي ببراءة زوج رسول الله ﷺ وإدانة موقف المنافقين.

٥ ـ كانت لهم لقاءات واجتماعات للتآمر ووضع الخطط الكيدية، واكتشفهم الرسول ﷺ ونهاهم وحذرهم، لكنهم لم

---

(١) سورة التوبة: آية ٦١.

(٢) المصدر السابق: آية ٥٨.

يتوقفوا عن ذلك الدور التآمري يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾[1]. والمناجاة هي التحادث الخفي.

٦ ـ كانوا يقومون بدور الإرباك وتثبيط العزائم، وعرقلة أوامر القيادة، وإفشال البرامج والسياسات، فتارة يشيعون بين المتأثرين بهم الامتناع عن الإنفاق وتقديم المال، لإضعاف الوضع الاقتصادي، من أجل الضغط على أتباع الإسلام: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[2].

وعند كل معركة كانوا يبثون روح التخاذل، ويسعون لتعويق حركة الجهاد: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

٧ ـ وقد تجرؤوا على التخطيط لتصفية رسول الله ﷺ واغتياله، عند رجوعه من غزوة تبوك، إذ نصبوا له كميناً على عقبة في الطريق ليلاً، لتنفر ناقته وتقع به وسط الوادي، وكانوا أكثر من عشرة أشخاص ملثمين، فعرف رسول الله ﷺ خطتهم، وكشف لبعض أصحابه عن أسمائهم، وأنجاه الله تعالى من مؤامرتهم.

(١) سورة المجادلة: آية ٨.
(٢) سورة المنافقون: آية ٧.
(٣) سورة الأحزاب: آية ١٨.

سياسة الاستيعاب

يصعب استقصاء كل الأدوار والممارسات التي قام بها المنافقون في مناوأة حركة الإسلام، ومواجهة قيادة رسول الله ﷺ، وكان يكفي أي واحد من تلك الأدوار والمواقف، لتوجيه الضربات القاضية لرموزهم وأتباعهم من قبل رسول الله ﷺ، وقد أشار كبار الصحابة على النبي ﷺ باستخدام القوة لردع المنافقين في مواقف كثيرة.

كما أن آيات القرآن الكريم في فضح خطط المنافقين والتنديد بمؤامراتهم والتحذير منهم والأمر بمجاهدتهم، كانت توفرّ للنبي ﷺ فرصة مواجهتهم وقمعهم لو أراد ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[١]، وتكررت الآية بنفس النص في سورة التحريم آية ٩.

---

(١) سورة التوبة: آية ٧٣.

لكن ما يثير الدهشة هو سعة صدر رسول الله ﷺ، وعظيم احتماله لكل إساءاتهم الخطيرة، وممارساتهم العدائية.

لقد تعامل معهم بنفس طويل، وصبر عميق، ومارس معهم سياسة الاحتواء والاستيعاب، والتي يمكن قراءتها ضمن البنود التالية:

أولاً: عدم اللجوء إلى القوة والقمع، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كأعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحداً، ولم يسجن أحداً، ولم يجلد أحداً، ولم يطرد أحداً. ويؤكد الباحث الأستاذ محمد عزة دروزة على «عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي ﷺ قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك، أو أمر بقتلهم، أو قتل بارزيهم، بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم، والتعرض لنساء المسلمين، بل لنساء النبي بالأذى والكيد، والتضامن مع أعداء الإسلام وموالاتهم.

إن النبي ﷺ قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة

توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها، والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين؛ لا سيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ و﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. و﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ و﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ إلخ»[1].

ثانياً: لم يصادر أي حق من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين، يحضرون المسجد، ويدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

ثالثاً: وأكثر من ذلك كان رسول الله ﷺ يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه.

ومن أجل توثيق بنود هذه السياسة النبوية، وتوضيح معالمها، نلتقط بعض الصور من السجلات النبوية الشريفة:

يقودون تمرداً عسكرياً

في غزوة أحد وعندما تحرك جيش مكة لمهاجمة المدينة انتقاماً من هزيمتهم ببدر، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ جمع المسلمين

(١) دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ، ج٢ ص٧٨.

ليستشيرهم في الموقف، فكان رأي الأغلبية الخروج لمواجهة جيش المشركين، واستجاب الرسول ﷺ لرأيهم، وقاد الجيش، لكن عبدالله بن أبي وهو رأس المنافقين، كان معترضاً على قرار الخروج، مطالباً بالتحصن في المدينة، لكنه مع ذلك خرج مع الجيش الذي بلغ تعداده ألف مقاتل، وفي منتصف الطريق قرر عبدالله بن أبي التراجع والانسحاب من الجيش، وانسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي ثلث الجيش، وذلك يعني تمرداً عسكرياً على القيادة في حال الحرب، وضربة لمعنويات معسكر المسلمين وقوتهم، وقد تصدى بعض الأصحاب لنصيحتهم ليعدلوا عن قرار الانسحاب، كعبدالله بن عمرو بن حرام الذي خاطبهم بقوله: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم. لكنهم لم يستجيبوا للنصح.

وكاد أن يخلق انسحابهم اضطراباً في الجيش الإسلامي، حيث همّ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن ينسحبوا تأثراً بموقف ابن أُبي وجماعته.

وبينما رأى فريق من المسلمين ضرورة اتخاذ إجراء تأديبي تجاه هذا التمرد الخطير، فإن رسول الله ﷺ تجاهل تمردهم، وتركهم وشأنهم، واستمر في طريقه لمواجهة العدو.

ومرة أخرى مارسوا نفس الدور في غزوة تبوك، حيث حشد رسول الله ﷺ جيشه لمواجهة الأخطار التي كانت تتهدد

المسلمين من النصارى على حدود الجزيرة العربية طرف الشام، ليكون ذلك رسالة للروم الذين كانت تدور في أوساطهم فكرة اجتياح الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام.

فكان أضخم جيش لرسول الله ﷺ يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، وكان ذلك في فصل الصيف ذي الحرارة اللاهبة، وفي سنة مجدبة، لذلك أطلق على تلك الغزوة اسم غزوة (العسرة).

وقد قام رسول الله ﷺ بتعبئة كبيرة في صفوف المسلمين لإنجاح هذا المسير، في المقابل كان المنافقون يقومون بدور مضاد، لتثبيط العزائم، ونجحوا في دفع بعض وحدات الجيش الإسلامي إلى التمرد والانسلاخ، وكان للجد بن قيس ـ من زعماء المنافقين ـ دور بارز في هذا السياق، وللتغطية على دوره الخياني استأذن رسول الله ﷺ في التخلف عن الجيش، فأجابه ﷺ: قد أذنت لك. وكان الجد بن قيس يقول لولده عبدالله وهو مؤمن صادق، عاتب أباه على تخلفه فأجاب أبوه: ما لي وللخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله ما آمن من بني الأصفر وأنا في منزلي!!

ووجه نداءً إلى قومه بني سلمة يحثهم على التخلف عن رسول الله ﷺ.

أما عبدالله بن أبي فانخرط في الجيش، ثم انسحب مع جماعة كثيرة بغرض الإرباك، وعاد إلى المدينة متمنياً الهزيمة للمسلمين

بقوله: يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين بالحبال.

ولم يتخذ رسول الله أي إجراء ضدهم، بل لم تسمع منه كلمة لوم أو عتاب تجاههم.

إثارة الفتنة والنيل من القيادة

عند رجوع الجيش الإسلامي من غزوة بني المصطلق في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة، حصل سوء تفاهم لتزاحم على الماء بين رجلين من المسلمين، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، فصاح كل منهما باسم جماعته لتنتصر له، كما هي أعرافهم في الجاهلية، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك، بادر للحضور مستنكراً ما حدث قائلاً: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة.. وانتهت الحادثة بتنازل الأنصاري المضروب عن حقه.

لكن عبدالله بن أُبي أراد اغتنام الفرصة لتأليب الأنصار على المهاجرين، وإثارة الفتنة، فكان يقول: ما رأيت كاليوم مذلة قط، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

مهدداً بإخراج رسول الله ﷺ والمهاجرين من المدينة. كما

نقل ذلك الوحي: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[١].

وصار يذكي في قومه روح العداء للمهاجرين قائلاً: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم دياركم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه ـ أي النبي ﷺ ـ فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد!!

وقد نقل القرآن الكريم هذه المقولة يقول تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾[٢].

أثارت هذه المقولات التحريضية والمسيئة للقيادة حفائظ المسلمين، وطلب عمر بن الخطاب من رسول الله ﷺ أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبدالله بن أبي، قائلاً: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فرفض النبي ﷺ قائلاً: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[٣].

فقال عمر: إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصارياً يقتله،

(١) سورة المنافقون: آية ٨.
(٢) سورة المنافقون: آية ٧.
(٣) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٤ ـ ٦٣.

فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك قائلاً: إذن ترعد له أُنُفٌ كثيرة بيثرب. أي أنه سيغضب لقتله كثيرون من قومه[١].

فجاء عبدالله بن عبدالله بن أُبي، وكان مؤمناً صادقاً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبَّر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله اُبن أُبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[٢].

الشفاعة في الخائنين

يهود بني قينقاع تقع منازلهم داخل المدينة، وقد عقد معهم النبي ﷺ معاهدة سلام، على أن لا يمسوا المسلمين بسوء، ولا يمدوا يدَ عونٍ لأعدائهم، لكنهم لم يلتزموا بالعهد، وصاروا يستفزّون المسلمين ويؤذونهم، ونصحهم رسول الله ﷺ وحذرهم، فلم يرتدعوا، وظهرت معالم استعدادهم لمواجهة المسلمين، فبادر النبي ﷺ لحصارهم منتصف شهر شوال من

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، الأحزاب ص٩١.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣ ص٣٢٠.

السنة الثانية للهجرة، فاعتصموا بحصونهم خمس عشرة ليلة، ثم فاوضوا على الاستسلام دون قيد أو شرط.

وكان عبدالله بن أُبي يراهن على صمود بني قينقاع ومواجهتهم للنبي ﷺ، فلما رأى استسلامهم خابت آماله، لكنه طلب من النبي ﷺ العفو العام عنهم، باعتبارهم حلفاء الخزرج قبل الإسلام، قائلاً: يا محمد أحسن في مواليّ. فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني ـ أي اتركني ـ وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً. ثم قال: ويحك! أرسلني! قال ابن أُبي: لا والله لا أرسلك ـ لا أدعك ـ حتى تحسن في مواليّ، أربع مئة حاسر ـ أي لا درع له ـ وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله امرؤ أخشى الدوائر! فقال رسول الله ﷺ: هم لك[1]. فاستجاب لطلبه الملحّ وعفا عنهم ليخرجوا جميعهم من يثرب سالمين.

تشجيع اليهود والتجسس لهم

بعد أن اكتشف المسلمون مؤامرة يهود بني النضير لاغتيال رسول الله ﷺ، أنذرهم النبي ﷺ بالجلاء عن المدينة، وبدأ الاستعداد لمحاصرتهم، فبادر بعض المنافقين من بني عوف وفيهم

(١) المصدر السابق، ج٣ ص٥٤.

عبدالله بن أُبي، بالكتابة إلى بني النضير ضمن رسالة مستعجلة جاء فيها: «إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا لقتاله، ولا تخافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون عزّل لا سلاح معهم إلا القليل».

واستمر تواصلهم لتحريض بني النضير على المواجهة والصمود، مبدين تعاطفهم وتضامنهم معهم، وقد فضح الوحي موقفهم حيث نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(١).

ولم يتخذ رسول الله ﷺ أي إجراء ضد هؤلاء المنافقين، مع اطلاعه على موقفهم الخياني.

مؤامرة لاغتيال الرسول(ص)

بعد أن حقق الجيش الإسلامي انتصاره الكبير في غزوة تبوك، تآمر بعض المنافقين لتصفية رسول الله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة، وكانت خطتهم أن يعملوا على تنفير ناقة رسول الله ﷺ التي يركبها، حين يكون على موقع مرتفع، لتسقط به في بطن الوادي، واختاروا عقبة تشرف على وادٍ سحيق، كموضع للتنفيذ، في ظلام الليل، ليبدو الأمر كأنه حادث طبيعي.

(١) سورة الحشر: آية ١١.

وعلم رسول الله ﷺ بمؤامرتهم، فأمر الجيش بتغيير اتجاه سيره ليسلك الوادي، وانفرد الرسول ﷺ مع ثلاثة من أصحابه ليعبروا تلك العقبة.

فغيّر المنافقون خطتهم منتدبين ثلاثة عشر منهم، كانوا ملثمين لتنفيذ المؤامرة، لكن رسول الله ﷺ اكتشفهم أيضاً، وأمر من معه وهو حذيفة بن اليمان بمهاجمتهم، فهربوا واختلطوا بالجيش حتى لا يعرفهم أحد.

وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم له، وأمره بالكتمان، فقال يا رسول الله أفلا تآمر بقتلهم؟ فقال ﷺ: أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وحينما علم زعيم الأوس أسيد بن حضير بما حصل، قال لرسول الله ﷺ: مر كل بطن ـ أي كل فرع من قبيلة ـ أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم، فإن مثل هؤلاء يُتركون يا رسول الله؟! حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلّة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبق من هؤلاء؟

فقال رسول الله ﷺ لأسيد: إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه!

فقال أسيد: يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال ﷺ: أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: أليس يُظهرون أني رسول الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: فقد نهيت عن قتل أؤلئك[(١)].

وفاة ابن أُبي

بعد غزوة تبوك توطدت قوة الإسلام، وتضاءل تأثير المنافقين، لكن رسول الله ﷺ استمر في سياسته الحكيمة بالتعامل بأعلى درجات المرونة والتسامح معهم، فقد مرض رأس النفاق عبدالله بن أُبي، فجاء ولده عبدالله إلى النبي ﷺ وأبوه يجود بنفسه، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إنك إن لم تأت أبي عائداً كان ذلك عاراً علينا.

فاستجاب رسول الله ﷺ وقام إلى عيادته فدخل عليه وعنده جمع من المنافقين، فقال ابنه عبدالله: يا رسول الله استغفر له، فاستغفر له.

(١) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازي، ج٣ ص١٠٤٣.

فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله؟

فأعرض ﷺ، فأعاد عليه عمر.

فقال ﷺ: إني خيّرت فاخترت إن الله عز وجل يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[1].

قال الواقدي: ومرض عبدالله بن أُبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه، دخل عليه رسول الله ﷺ، وهو يجود بنفسه.

فقال ﷺ: قد نهيتك عن حب اليهود.

فقال ابن أُبي: أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه؟

ثم قال: يا رسول الله ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مِت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفّن فيه. فأعطاه قميصه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال ابن أُبي: الذي يلي جلدك. فنزع رسول الله ﷺ قميصه الذي يلي جلده فأعطاه. ثم قال: صل علي واستغفر لي. فحضر رسول الله ﷺ غسله، وحضر كفنه، ثم حمل إلى موضع الجنائز فتقدم رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله،

(١) سورة التوبة: آية ٨٠.

أتصلي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا؟ فعدّ عليه قوله.

فتبسم النبي ﷺ وقال: أخِّر عني يا عمر! فلما أكثر عليه عمر قال ﷺ: إني قد خيّرت فاخترت، ولو أعلم إني إذا زدت على السبعين غفر له زدت عليها، وهو قوله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: ما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إن كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه، وروي أنه أسلم بعد موته ألف من قومه لما رأوا تبّركه بقميص النبي ﷺ. وفي هذا ـ كما يقول النووي ـ بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى، فألبسه قميصه وصلى عليه واستغفر له[2].

(١) المصدر السابق، ج٣ ص١٠٥٧.

(٢) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، تبوك ص١٥٨.

احتواء المواقف السيئة

واجه رسول الله ﷺ لوناً آخر من الإساءات لشخصيته وموقعه القيادي، ومن المخالفات لقراراته وأوامره الدينية والسياسية، كانت تصدر من أفراد غير منتمين لتيار مناوئ كالمنافقين، وإنما هي نابعة من الجهل، أو الانفعال، أو الأغراض الشخصية، وبعض تلك الإساءات كانت شديدة تنال من مقام رسول الله ﷺ، وتشكك في نزاهته، كما أن بعض المخالفات كانت ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى، لكن رسول الله ﷺ استقبل كل تلك الإساءات والمخالفات بسعة صدر مذهلة، واستوعب أصحابها بحلم وأناة لا مثيل لها من قائد في التاريخ.

ولم يستخدم القمع والعنف في أية حالة من تلك الحالات، رغم توفر الأسباب والمبررات، ورغم إلحاح بعض من حوله من الأصحاب على ذلك، إلا أنه ﷺ التزم نهج السلم، ورجّح سياسة العفو.

وفيما يلي نقل بعض النماذج والشواهد:

خيانة عظمى

حينما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، أحاط قراره بالكتمان الشديد، حتى لا تكون لقريش فرصة للاستعداد والتعبئة، وحشد ﷺ المسلمين دون أن يخبرهم بجهة قصده، بل بعث سرية عسكرية إلى ناحية نجد للتعمية والتمويه. ووضع حراسة على الطرق المؤدية إلى مكة حتى لا يتسرب أشخاص مشبوهون ينقلون الأخبار.

مع هذا الحرص الشديد على الكتمان لإنجاح الخطة، فإن أحد الأصحاب من المهاجرين من أهالي مكة، وهو حاطب ابُن أبي بلتعة، علم بطريقة خاصة عن قصد رسول الله ﷺ، فبادر بالكتابة إلى زعماء مكة بما نصه: «إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم» واستأجر لإيصاله امرأة دفع لها مبلغاً من المال، وأخفت الكتاب بين شعر رأسها، واتجهت سريعاً نحو مكة.

وهبط الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث ﷺ علياً والزبير، وقال لهما: أدركا امرأة قد بعث معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم. فأسرعا حتى أدركاها في الطريق، وأنكرت الأمر في البداية، ثم هدداها فاعترفت وسلمت لهما الرسالة، فتركاها ولم يتخذا أي إجراء ضدها، كما أمر رسول الله ﷺ، وجاءا بالكتاب إلى

رسول الله ﷺ. فاستدعى حاطب، وقال له: أتعرف هذا الكتاب؟ فلم ينكر، بل قال: نعم. فقال ﷺ: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدلت، ولكني كنت أمرأً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهليهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت أن أتخذ فيهم يداً أحمي بها أهلي.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. إلا أن النبي لم يوافق على اقتراح عمر، بل اتبع سبيل الصفح والعفو عن حاطب لمواقفه السابقة، وقال لأصحابه: إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيراً[١].

هنا لم تكن حسابات سياسية تمنع معاقبة حاطب، فهو لا ينتمي إلى تيار يُخشى، وليس له في المدينة قبيلة تراعى، وقد ارتكب خيانة عظمى، لكن نهج رسول الله ﷺ هو الصفح والعفو. بل أعاد له الاعتبار حين أمر الأصحاب أن لا يقولوا له إلا خيراً.

التشكيك في نزاهة القيادة

لم يكن النبي ﷺ مجرد قائد يتمتع بالنزاهة والصدق، بل هو

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، فتح مكة ص٩١.

رسول من قبل الله تعالى، يؤمن به أتباعه كصلة بينهم وبين الله تعالى، يخبرهم عنه، وينقل لهم شرائعه.

من هنا فإن أي تشكيك في نزاهة رسول الله ﷺ يناقض أساس العقيدة والدين، ويصطدم مع الثقة المطلقة التي يجب الإيمان بها في رسول الله ﷺ.

وقد تجرأ بعض الأفراد على إعلان التشكيك في نزاهة رسول الله ﷺ عند بعض المواقف، لكنه ﷺ لم يتخذ تجاههم أي إجراء قمعي، ولم يستخدم العنف أبداً، بل اكتفى بالتأكيد على موقعيته الرسالية الثابتة.

١ ـ جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة، منصرفه من حنين. وفي ثوب بلال فضة. ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطي الناس. فقال يا محمد اعدل!! قال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن اعدلُ».

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق.

فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي..»[(١)].

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ١٠٦٣.

٢ ـ وعن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ، من اليمن، بذهبة في أديم مقروظ. فقسمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً» قال: فقام رجل غائر العينين. مشرف الوجنتين. ناشز الجبهة. كث اللحية. محلوق الرأس. مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله اتق الله. فقال «ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله» قال: ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال ﷺ: «لا. لعله أن يكون يصلي». قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس. ولا أشق بطونهم»[١].

٣ ـ وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل غزوة بدر: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا ـ مع المشركين ـ كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهاً.

---

(١) المصدر السابق، حديث رقم ١٠٦٣ ـ ١٤٤.

فقال أبو حذيفة بن عتبة وهو من المسلمين المهاجرين، لما بلغه قول رسول الله ﷺ ذلك: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنَّه السيف!!

قال: فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيُضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟

فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه ـ أي أبا حذيفة ـ بالسيف، فوالله لقد نافق[1]. فرفض رسول الله ﷺ ذلك، ولم يسمح بأن يمسّ أبو حذيفة بأي أذى.

٤ ـ وجاء في سنن الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال: أُتي رسول الله ﷺ بمال فقسمه فانتهيت إلى رجلين جالسين وهما يقولان: والله ما أراد محمد بقسمته التي قسمها وجه الله ولا الدار الآخرة، فتثبت حين سمعتهما فأتيت رسول الله ﷺ وأخبرته، فاحمر وجهه وقال: دعني عنك فقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فصبر[2].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢ ص٢٤٠.
(٢) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، حديث رقم٣٨٩٦.

من أجل السلم والاستقرار

هذه السيرة النبوية العطرة كيف يجب أن يقرأها المسلمون؟

إنها ليست مجرد فضائل باهرة تزيدنا فخراً وإعجاباً برسول الله ﷺ، ولا مجرد مواقف وصفات أخلاقية تتميز بها شخصيته الكريمة، بل يجب أن نقرأها كنهج لحياتنا الاجتماعية، وبرنامج لنظامنا السياسي.

فمن خلال هذه السيرة أراد رسول الله ﷺ أن يحدد معالم النظام السياسي لإدارة المجتمع الإسلامي، تلك الإدارة التي ترفض العنف لغة في التعامل مع الشعب، وتبني دولة اللاعنف، بحيث يجد الناس أمامهم فرصة التعبير عن آرائهم وأفكارهم، مهما كانت مخالفة لتوجه القيادة، دون أن يتعرضوا للتصفية أوالتنكيل.

وما نراه الآن في واقع المجتمعات والأمم المتقدمة، التي تضمن حرية الرأي لمواطنيها، وتوفر لهم فرص التعبير عن أفكارهم وتوجهاتهم السياسية، عبر الإعلام والمؤسسات والتجمعات

السلمية، مهما كانت مخالفة لإدارة السلطة، إنما هو تطبيق معاصر لنهج سلكه رسول الله ﷺ قبل خمسة عشر قرناً بشكل أوفى وأكمل، وفي بيئة متأخرة متخلفة، قد ألفت الحروب والعنف، وانسجمت مع منطق القوة والسيف، باعتباره أفضل الوسائل والسبل للتعامل مع الرأي المضاد والموقف المخالف.

لذلك نقرأ إلحاح الأصحاب المحيطين برسول الله ﷺ على قمع أي معارض وضرب عنقه، دعني أضرب عنقه، دعني أقتله. لكنه ﷺ رفض عنف الدولة، وأسس لدولة اللاعنف. مع أن الدولة الدينية أو الأيديولوجية بشكل عام عادة ما تكون أكثر شدة وعنفاً حسبما يسجل التاريخ.

بالطبع نحن نعتقد أن تلك السياسة النبوية لا تنطلق من حالة ذاتية، وليست نابعة من قناعة فكرية شخصية عند رسول الله ﷺ، أو ناتجة عن خلق نفسي خاص لديه ﷺ، بل هي فوق ذلك شريعة إلهية، ووحي ربّاني، فإن خالق الناس هو الذي منحهم الحياة، وأنعم عليهم بنعمة العقل ليفكروا من خلاله، وأعطاهم القدرة على التعبير عن مكنونات أنفسهم وحركة عقولهم، كما يقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[1]، وبذلك فإنه تعالى لا يسمح لأحد أن يصادر من خلقه مِنَحه لهم، ونِعمه عليهم، إلا بمبرر قاطع واضح يقبله الخالق نفسه جلّ وعلا.

(١) سورة الرحمن: آية ٣ ـ ٤.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الرسول محمداً ﷺ، كان يدرك أنه يقوم بدور التأسيس والبناء لأمة يريد لها الله تعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وهو يعلم أن سيرته الشريفة بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال ستكون حجة ملزمة، وسنة شرعية، لذلك كان ﷺ حريصاً ومهتماً بحماية حقوق الناس، وحفظ كرامتهم، ورعاية مصالحهم، لتنتهج أمته نهج السلم الاجتماعي، ولتبتعد عن طريق القمع والعنف الداخلي، كما يقول تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، وكما حذر ﷺ أمته من الانحدار إلى هوة الاحتراب والعنف الداخلي، في أكثر من مورد.

ورد في صحيح البخاري عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: «أي شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟». قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟ أليس البلدة؟». قلنا بلى، قال: «فأي يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟». قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ قال محمد: واحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألَا ليبلغ الشاهد الغائب»، ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»[1].

وعلى مستوى النتائج والآثار فإن ذلك النهج السلمي الذي سلكه رسول الله ﷺ هو الذي مكنّه من تحقيق انتصاره العظيم،

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٥٥٥٠.

وانجازه الحضاري الكبير، الفريد من نوعه في التاريخ، في مدة قياسية من الزمن، وبأقل قدر من الخسائر.

فلو استخدم رسول الله ﷺ العنف داخلياً، ومارس القمع تجاه المخالفين لقاد ذلك إلى ردود فعل سلبية، على المستويات التالية:

١ ـ قد يزيد من تحدي المخالفين، ويدفعهم إلى تصعيد مناوءتهم، وبعضهم قد تكون مخالفته بسبب جهل أو انفعال وقتي، فإذا ما قوبل بالقوة والشدة فقد يدفعه ذلك إلى الإصرار والعناد، بينما كان حلم رسول الله ﷺ غالباً ما يدفع إلى التراجع والاعتذار، كما تنص على ذلك الشواهد الكثيرة. والقائد الحكيم كالأب الرحيم يريد صلاح ابنه وليس الانتقام منه.

إن بعض الدول حينما تسرعت في استخدام القمع تجاه معارضيها دفعتهم لسلوك طريق العنف المضاد، مما يسلب أمن المجتمع، ويدخله في دوامة العنف والاضطراب.

٢ ـ استخدام العنف يخلق حالة من التعاطف مع من يقع عليه، وخاصة في ذلك المجتمع الخاضع للعصبيات القبلية. بينما العفو والصفح، يعطي أثراً معاكساً، حيث يتوجه الآخرون باللوم والعتاب للمخالف، ويحمدون عفو المقتدر وصفحه. وهذا ما حصل في كثير من المواقف المذكورة في السيرة النبوية.

٣ ـ سياسة العفو والتسامح وفرّت للدعوة الإسلامية، وللقيادة

النبوية سمعة حسنة، ووجهاً مشرقاً أمام الرأي العام، مما ساعد على انتشار الإسلام، وإقبال الناس عليه، ودخولهم فيه أفواجا، بينما لو تعامل رسول الله ﷺ بالشدة والعنف، لسبب ذلك تشويهاً لصورة الإسلام وشخصية النبي ﷺ، وهذا ما كان يشير إليه ﷺ بقوله: كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. . .

الانقلاب على النهج النبوي

لكن هذا النهج الحضاري الذي أرساه رسول الله ﷺ في إدارة المجتمع وممارسة الحكم والسلطة، تعرض لنكسات مؤسفة في وقت مبكر من تاريخ الأمة، بعد عهد الخلافة الراشدة، حيث شرع الحكام الذين جاءوا بعد الخلافة الراشدة من أمويين وعباسيين وغيرهم، سياسة القمع والعنف، وخالفوا نهج رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين في استيعاب الرأي الآخر، والرفق بالمعارضين والمخالفين.

ودخلت الأمة العربية والإسلامية نفق الاستبداد السياسي، وأخذتها دوامة العنف والعنف المضاد، إلى الوقت الحاضر مع تفاوت نسبي في الحالات بين الأزمنة والبلدان، فلا تكاد تجد عهداً يخلوا من الثورات والانتفاضات وحالات التمرد.

وبينما طورت الأمم الأخرى تجاربها السياسية الاجتماعية، وأصبحت تعيش حالة الاستقرار السياسي، والأنظمة الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة، بقيت أغلب بلاد المسلمين تعاني

الاضطرابات والأزمات، وخاصة البلدان التي ابتليت بالانقلابات العسكرية، والحكومات الحزبية، والتي مارست بحق شعوبها أسوأ ألوان القمع والاستبداد، تحت مختلف الشعارات البراقة.

إن الرأي العام العالمي ينظر الآن إلى بلاد المسلمين باعتبارها خارج إطار عالم الحريات وحقوق الإنسان، وباعتبارها مسرحاً للعنف، ومصدراً للإرهاب، واندفعت مختلف الجهات الدولية لتقديم مشاريعها ووصفاتها لعلاج الواقع السقيم للعرب والمسلمين، كمشروع أمريكا للشرق الأوسط الكبير، والمشروع الأوربي للإصلاح السياسي في الشرق الأوسط.

إن البديل الصحيح لرفض هذه المشاريع الأجنبية، التي لا تخلو من المطامع والأغراض المشبوهة، هو العودة إلى النهج النبوي، والتأسي بسيرته الكريمة في نبذ العنف، وإرساء السلم الاجتماعي، وحماية الحقوق والحريات.

وكما أمرنا رسول الله ﷺ بأن نصلي كما كان يصلي لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[١]. فإنه بالتأكيد يأمرنا أن نمارس الحكم والسلطة كما كان هو ﷺ يحكم ويدير، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣].

(١) المرجع السابق، حديث رقم ٦٣١.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٢١.
(٣) سورة الحشر: آية ٧.

إن التحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة لا تسمح لنا بالاسترسال في دوامة الصراعات الداخلية، فلا بد من التوافق والتراضي، ونبذ العنف وسيلة لحل الخلافات، واعتماد الحوار والنهج الديمقراطي السليم.

بناء الوحدة والشراكة الاجتماعية

كيف يمكن تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية في مجتمع يعيش انقسامات حادة على أساس قومي أو ديني ـ مذهبي، أو مناطقي أو قبلي؟

هل يكون ذلك بالمراهنة على تذويب الهوّيات وإلغاء مشاعر الانتماء الخاص؟

أو بغلبة طرف وإخضاعه لسائر الأطراف؟

أم أن هناك أساليب وخيارات أصوب؟

بإمكاننا أن نقرأ في الإنجاز التاريخي الذي تحقق على يد رسول الله ﷺ، بقيام الدولة والمجتمع الإسلامي الأول، تجربة ناجحة رائدة على هذا الصعيد.

حيث يجمع المؤرخون أن مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كان ممزقاً لا يجمعه كيان، ولا يلم شمله نظام، كانوا قبائل متناثرة، في أجواء علاقات مضطربة، غالباً ما تفضي إلى العداء والاحتراب، ومن يقرأ أيام العرب، وهو ما يطلق على معاركها

وحروبها، تدهشه تلك المعارك الضارية، التي تنشب لأتفه الأسباب، ففي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) الذي اشترك في إعداده ثلاثة من الباحثين، عرض لعشرات الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فمعارك القبائل القحطانية فيما بينهم بلغت عشر معارك، وبين القحطانيين والعدنانيين عشر معارك، وفيما بين قبائل ربيعة ست معارك، وما بين ربيعة وتميم خمسة عشر معركة، وبين قبائل قيس إحدى عشرة معركة، وبين قيس وكنانة عشر معارك، وبين قيس وتميم سبع معارك، وبين قبائل ضبّة وغيرهم خمس معارك، وهناك معارك أخرى متفرقة[١].

ويبدو أن هذه الحروب التي عرضها المؤلفون، هي ما تناقلت كتب التاريخ والأدب أخبارها، أما سائر المعارك وهي كثيرة فقد تجاوزوا ذكرها، جاء في مقدمة الكتاب: «وقد اقتصرنا على الأيام المشهورة التي وصل إلينا تفصيل حوادثها، وذكر أسبابها، ورواية أشعارها وقصائدها، أما الأيام التي لم يقع في الكتب إلا ذكر عنواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب، فقد جاوزها اختيارنا... روى صاحب كشف الظنون وغيره: أن أباعبيدة قد ألف كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً (معركة)، وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم، وأن أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم...»[٢].

(١) جاد المولى: محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية.
(٢) المصدر السابق ص: ك، ل.

كان ولاء العربي أولاً وأخيراً لقبيلته، مما يعني انصهاره فيها، وتغنيه بقوتها وأمجادها، وشدته تجاه ما يخالفها. وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أنه «حين تقرأ الشعر الجاهلي تشعر ـ غالباً ـ أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص، وأنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر، ووصف ما يشعر به وجدانه، وأظهر فيه أنه يحسّ لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته»[١].

في هذا المجتمع المتنوع قبلياً، والذي تسوده نزعة التطرف في الولاء للقبيلة، ويعيش حالة الصراع والاحتراب بين قبائله، بعث الله تعالى نبيه محمد ﷺ، فاستطاع خلال أقل من ربع قرن من الزمن، أن يبني من تلك القبائل مجتمعاً متماسكاً، وكياناً موحداً، يحمل للعالم مشروعاً حضارياً متقدماً.

حقاً إنه إنجاز عظيم لا نظير له في تاريخ البشرية.

وهو ما لفت نظر الدكتور (مايكل هارت) من أمريكا، عند تأليفه لكتاب عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، فوضع شخصية النبي محمد على رأس القائمة كأهم شخصية في تاريخ البشر، وكتب عن هذا الاختيار قائلاً: «إن اختيار المؤلف لمحمد ليكون على رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير

(١) أمين: أحمد، فجر الإسلام ص٥٩.

عالمي في مختلف المجالات، إن هذا الاختيار ربما أدهش كثيراً من القراء، إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف: أن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي»[١].

فكيف استطاع رسول الله ﷺ تحقيق هذا الإنجاز العظيم؟

وما هي الخطة التي اعتمدها لتوحيد ذلك المجتمع المتناثر الأشلاء؟

الهويّة المشتركة

في حالة الانقسام الاجتماعي تتضخم الهويّة الخاصة عند كل طرف من الأطراف، فهي حدود الدفاع عن ذاته، وخندق مقاومته، وعنوان وجوده، ومن أجل أن يتوحد المجتمع، لابد أن تنخفض درجة الغليان في الهويّات الخاصة، لصالح هويّة مشتركة يتمثل فيها وجود كل الأطراف، وترى من خلالها ذاتها بدرجة متماثلة.

وهنا لا يمكن أن تقوم هويّة أحد الأطراف بهذا الدور، لأن بروزها يستثير تحدي بقية الهويّات، وإعلانها يعني غلبتها واعتراف الآخرين بالهزيمة أمامها.

---

(١) هارت: مايكل، دراسة في المائة الأوائل.

فإذا كان المجتمع منقسماً على أساس قومي، فلا يمكن أن تشكل إحدى قومياته إطاراً لوحدته، وتصبح هوية جامعة له، وكذا الحال لو كان متعدد الأديان أو المذاهب، فإن أحدها لن يقوم بدور الجامع المشترك.

فلا بد من عنصر مشترك بين أجزاء المجتمع، يتم إبرازه والتركيز عليه كهويّة جامعة، أو تنمو حالة فكرية سياسية جديدة تتمحور حولها فئات المجتمع، وتصبح هدفاً مشتركاً وإطاراً جامعاً.

وهذا ما تحقق على يد رسول الله ﷺ، ومن خلال دعوته الإسلامية المباركة، والتي أصبحت حالة سريعة النمو تخترق أوساط مختلف القبائل، وتبشر بتوجه جديد يحفّز نحو أهداف سامية، ويتبنى قيماً إنسانية حضارية، تتجاوز أنانية الأفراد، وعصبية القبائل، وعبثية الحياة.

لقد أخذ الإيمان موقعه في نفوس أبناء تلك القبائل المتصارعة، وتمحور حوله ولاؤهم، وتوثق له انتماؤهم، على حساب الولاء القبلي، والانتماء العشائري، فأصبح إطاراً جامعاً وهويّة مشتركة، يفخر به الجميع بدرجة متساوية على اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها.

ثقافة الوحدة

حالة الانقسام والفرز الاجتماعي، تحفر آثارها في النفوس والمشاعر، بتضخيم الذات الفئوية، والحط من شأن المنافسين،

والتعبئة تجاههم، كما تنتج ثقافة تبرر التمايز، وتكرّس المفاصلة، وقد تدفع إلى سلوكيات عدائية، وممارسات استفزازية.

وحين يحصل تطلع للوحدة في المجتمع، لا بد من ثقافة جديدة تعالج آثار ثقافة الانقسام، وتواجه مفاعيلها النفسية والسلوكية.

لقد كان الصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، دافعاً لتربية الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتمائهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحاسيس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تنضح به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم.

إن الحماسة والفخر هو من الأغراض الأساسية في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعراء في تمجيد قبائلهم وإظهار مكانتها، وفي شعر عمرو بن كلثوم نموذج صارخ لمثل هذا التوجه، حيث يقول في إحدى قصائده:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملاؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا بلغ الفطام لنا وليد ... تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

والوجه الآخر لهذا اللون من الأدب الجاهلي هو أدب الهجاء، حيث يبالغ الشعراء في الحط من شأن القبائل المنافسة لقبيلتهم، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات.

وجاء الإسلام ليوحد تلك القبائل، فاهتم بمواجهة تلك الثقافة التمييزية السائدة، باجتثاث جذورها النفسية والفكرية، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت آيات القرآن الكريم، على الأصل الواحد لبني البشر: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[١]، ونسفت كل مبررات التفاضل الزائفة بين الناس، إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢].

وشدد رسول الله ﷺ في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشّن حرباً ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي.

كقوله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٣].

وروي عنه ﷺ: أنه خطب يوم فتح مكة فقال: «أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب: إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بآبائها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم وآدم

(١) سورة النساء: آية ١.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.
(٣) السجستاني: الحافظ أبوداود، سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٢١.

من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له»[١].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٢].

وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصاري فصاح أحدهما يا للمهاجرين ونادى الآخر: يا للأنصار، فلما سمع رسول الله ﷺ أدان هذا المنطق قائلاً: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»[٣].

بالطبع فإن المرفوض هو تفعيل الانتماء القبلي سلبياً، وتضخيمه على حساب الولاء للمبدأ، دون أن يعني ذلك رفض الاعتراف بالانتماءات، والإقرار بالكيانات القبلية في مضمونها الإيجابي.

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٠ ص٢٩٣.
(٢) المتقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم ٨٥٠٢.
(٣) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٤.

الشراكة الفعلية

لا شيء يحقق وحدة المجتمع كالشراكة الفعلية بين أطرافه في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، فذلك هو ما يشعر الجميع بمصلحتهم المشتركة في الحفاظ على كيان الوحدة، ورفض ما يمسّ بها، كما يجسد واقع المساواة في الحقوق والواجبات، أما إذا استأثرت بعض الأطراف بذلك، فإن الآخرين سيتملكهم الإحساس بالغبن والظلامة، وسيدفعهم شعورهم بالإقصاء والتهميش إلى القيام بردود فعل ليست في صالح الوحدة واستقرار المجتمع.

إن إقصاء أي طرف يحرم المجتمع من فاعليته وعطائه، ويفتح ثغرة في جدار وحدة المجتمع وأمنه.

ومن مفاخر الإسلام العظيمة سبقه إلى إقرار مبدأ المشاركة الشعبية، والشراكة الاجتماعية، وفي وقت كانت ترزح فيه المجتمعات البشرية في ظل أنظمة الاستبداد والعنصرية والطبقية البغيضة.

كان رسول الله ﷺ يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام، ليدلي كل مسلم برأيه، كبيراً كان أو صغيراً، من الأحرار أو الموالي، من المهاجرين أو الأنصار، ومن أية قبيلة كان،

وحتى العناصر غير العربية أخذت موقعها دون أي تفاوت، بل احتل بعضها موقعاً متميزاً بجدارته كصهيب الرومي وسلمان الفارسي.

وفي مجال الوظائف والمهام القيادية، كان رسول الله ﷺ يسندها إلى الأكفاء المؤهلين من مختلف القبائل، ولو أُعطي هذا الجانب من السيرة النبوية حقه من الدراسة، لتجلت لنا وللبشرية روعة تعاليم الإسلام، وعظمة القيادة النبوية.

إن قائمة أمراء الجيوش والسرايا، وكذلك السفراء المبتعثين للملوك والزعماء، والشخصيات التي عينها الرسول ﷺ في مواقع القضاء والمسؤوليات الدينية، هذه القوائم حين نفحصها نرى التنوع في الانتماء القبلي والمناطقي لأشخاصها.

وبعض التعيينات كانت تشكل صدمة وإثارة للرأي العام الذي كان يعاني من رواسب الحقبة الجاهلية، لكن رسول الله ﷺ كان حازماً في تحقيق مبدأ الشراكة واحترام الكفاءة.

ففي يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً الحبشي الأسود، الذي كان عبداً يباع ويشترى في مكة، وأوقع به أسياده القرشيون صنوف الإهانة والتنكيل، حتى أغروا صبيانهم وسفهاءهم أن يقتادوه بحبل ليسخروا منه ويؤذوه، هذا الرجل اختاره رسول الله ﷺ ليكون أول مؤذن على ظهر الكعبة، مما أثار حفيظة الكثير من

القرشيين، حتى قال أحدهم لصاحبه: لقد أكرم الله أبي أن مات وألا يكون سمع هذا!! وكان الحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدين فقال أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الحبشي!! فقال الآخر: إن يكرهه الله يغيّره[١].

وحينما عين رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وهو عبد اشتراه حكيم بن حزام ثم وهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، عينه رسول الله ﷺ على رأس جيش المسلمين إلى الروم في غزوة مؤته إلى جانب جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة، اعترض البعض على هذا التعيين، فردّ عليهم رسول الله ﷺ، ثم عين ولده الشاب أسامة ابن زيد على رأس آخر بعث عسكري له ﷺ، وجعل تحت إمرته كبار المهاجرين والأنصار.

قال ابن سعد في الطبقات: لما كان يوم الإثنين لأربع ليال من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش... فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبوبكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص... فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣ ص٢٣٥.

الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقا وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة..[١].

نهج الوحدة والحضارة

هذا النهج الوحدوي الذي اعتمده رسول الله في بناء الأمة، بتركيز الهويّة المشتركة، وهي الإسلام، لتكون فوق سائر الهويّات والانتماءات، والتي لم يتنكر الإسلام لوجودها، كالقبيلة والوطن والقوم، وإنما حارب التوجهات السلبية فيها، وضخّ في المجتمع الجديد ثقافة وحدوية، تعالج آثار المفاصلة القبلية السائدة، وكذلك الحرص على تحقيق الشراكة الاجتماعية بين مختلف الأطراف في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور.. هذا النهج هو ما يؤدي إلى الوحدة الحقيقية، وهو ما يؤهل المجتمع للرقي الحضاري.

وما تنتهجه الآن المجتمعات الغربية المتقدمة، من اعتماد الوطن كهويّة مشتركة، ومن احترام التنوع في مجتمعاتها، وتجريم الطروحات العنصرية، والممارسات التمييزية بين المواطنين، وتحقيق

(١) المصدر السابق، ج٢ ص١٩٠.

الشراكة والمشاركة عبر النظام الديمقراطي، إنما يمثل إدراكاً لأفضل سبل التقدم والحضارة التي سبق إليها الإسلام بقرون، ومع تلافي الكثير من الثغرات والسلبيات التي تعاني منها الحضارة الغربية.

والمسلمون اليوم هم الأولى بمثل هذا النهج السليم، النابع من تعاليم دينهم، والمنسجم مع تاريخهم وثقافتهم الأصيلة.

الحوار والإقناع.. مشاهد من السيرة النبوية

إنما يؤمن الإنسان بفكرة إذا اقتنع بها، أو توفّر في نفسه انشداد إليها، أما الفرض والإكراه، فأثره معدوم في مجال تثبيت الأفكار والقناعات، وغاية ما ينتجه التظاهر بالاقتناع والقبول، مع استقرار حالة الرفض والممانعة الداخلية، كما يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(١).

وكذلك لا يندفع الإنسان إلى عمل أو حركة، إلا إذا امتلك الرغبة في ذلك، ورأى فيه مصلحة وكسباً لذاته، معنوياً أو مادياً.

ومن يسعى لنشر فكرته في أوساط الآخرين، ويهمه استجابتهم لدعوته، عليه أن يبحث عن منافذ التأثير على نفوسهم، وطرق الوصول إلى عقولهم، ليضمن اقتناعهم وقبولهم بفكرته ودعوته.

ولأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده إيماناً صادقاً، فقد ترك لهم حرية الاختيار، ومنحهم العقل والإرادة، وجعل وظيفة أنبيائه

(١) سورة النحل آية ١٠٦.

التذكير والتبليغ، ولم يسمح لهم بممارسة أي لون من ألوان الفرض والإكراه.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٣).

لقد زوّد الله تعالى أنبياءه بأعلى قدرة وكفاءة ممكنة، ليقوموا بدور تبليغ الرسالة، عن طريق إثارة العقول، وجذب النفوس، ليكون إيمان الناس بها عن قناعة ورضى واطمئنان.

فأنبياء الله تعالى يمتازون بالقدرة على طرح دعوتهم الإلهية، ببيان واضح، يخاطب العقل، ويوافق الفطرة، ويحرّك النوازع الخيّرة في النفس. وهو البلاغ المبين.

كما يتحلّون بسعة الصدر، ورحابة الأخلاق، وصدق المحبة للناس، فيصبرون على الأذى، ولا ينفعلون أمام الإساءات، ويتحملون جهل الجاهلين، وتصرفات المعاندين. وتلك صفات مساعدة على النجاح في الدعوة.

---

(١) سورة يونس آية ٩٩.
(٢) سورة الغاشية آية ٢١، ٢٢.
(٣) سورة النحل آية ٣٥.

ونبينا محمد ﷺ هو في القمة من هذه الخصائص والصفات، فهو أفضل الأنبياء، وسيد المرسلين، قام بأعباء الدعوة إلى الله تعالى في مجتمع غارق في الوثنية والشرك، خاضع للعصبيات القبلية، نشأ أبناؤه على الاعتزاز بالذات والقبيلة، مما جعلهم صعبي المراس، يستعصون على الإخضاع والانقياد.

لكن جهود النبي ﷺ، وكفاءته العظيمة، نجحت في استقطابهم للدعوة الإلهية، وخلقت منهم أمة إسلامية رائدة، تحمل رسالة الله إلى شعوب الأرض.

فكيف تحقق ذلك؟

لم تكن لرسول الله ﷺ عند بعثته قوة عسكرية قبلية، تفرض دعوته على قبائل العرب، بل كان في موقع ضعف واضح، ويكفي أن قريشاً فرضت عليه وعلى أسرته الحصار والمقاطعة الاجتماعية والاقتصادية ثلاث سنين.. ولم تكن له ثروة يستميل بها الزعامات والعشائر، بل كان يتيماً فقيراً أسعفته أموال زوجته خديجة في تسيير أمور حياته،لكنه نجح في استمالة النفوس بعظيم أخلاقه، واستطاع كسب العقول بفصاحة بيانه، وقوة حجته، وحسن منطقه.

سلك رسول الله ﷺ طريق البلاغ المبين، وأسلوب الحوار الهادئ، ونهج الإقناع الصادق. ومن يقرأ سيرته الكريمة، ويتأمل تخاطبه وتعامله مع الناس، في طرح دعوته ورسالته، يندهش لتلك

القدرة الفائقة، والأدب الرفيع، وكما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ونلتقط من سيرته العطرة بعض الصور والمشاهد، عن حواراته، ومنهجه في إقناع الآخرين برسالته ومواقفه الشرعية، لتكون نبراساً لنا في طريق الدعوة إلى الله، والتعامل مع الآخرين.

الاتهام بالجنون

كان من التهم التي أثارها المشركون على رسول الله ﷺ، لينفروا الناس عنه، أن رموه بالجنون، وأنه أصابه مسّ من الجن، فما يدعيه من الرسالة والنبوة هو نتيجة اختلال عقلي ونفسي. يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾[1]

وجاء الحارث بن كلدة الثقفي، وهو طبيب مشهور يعالج الأمراض الجسمية والنفسية، إلى رسول الله ﷺ، قائلاً: يا محمد جئت أداويك من جنونك، فقد داويت مجانين كثيرة فشفوا على يدي!!

إنه موقف مثير مزعج، أن يُواجه الإنسان بالاتهام في عقله، وفي استوائه النفسي، لكن الرسول ﷺ، لم يسيطر عليه

(١) سورة القلم آية ٥١، ٥٢.

الانفعال، ولم يجابه الموقف بالشدة والرفض، بل أدار مع الحارث بن كلدة حواراً هادئاً صريحاً، حيث قال له: أنت تفعل أفعال المجانين وتنسبني إلى الجنون؟

والملاحظ هنا أن الرسول ﷺ لم يبادله الاتهام بالجنون، فلم يقل له إنك أنت مجنون، بل قال: تفعل أفعال المجانين.

قال الحارث: وماذا فعلته من أفعال المجانين؟

قال ﷺ: نسبتك إياي إلى الجنون من غير امتحان منك، ولا تجربة، ولا نظر في صدقي أو كذبي!!

قال الحارث: أو ليس قد عرفت كذبك وجنونك بدعواك النبوة التي لا تقدر لها؟

قال ﷺ: وقولك لا تقدر لها فعل المجانين، لأنك لم تقل: لم قلت كذا؟ ولا طالبتني بحجة فعجزت عنها.

قال الحارث: صدقت أنا أمتحن أمرك بآية أطالبك بها. وطلب من الرسول ﷺ معجزة تدل على صدق نبوته، فأجاب الرسول ﷺ طلبه، فأسلم فوراً على يد رسول الله ﷺ(١).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج١٧ ص٣١٦.

يستأذن في الزنا

الزنا عمل قبيح حرّمته كل الشرائع السماوية، واعتبره الإسلام من أسوأ الفواحش، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وقرر الإسلام عقوبة رادعة لمن يثبت عليه اقترافه، وهذا من أوائل التشريعات الإسلامية.

لكن السيرة النبوية تحدثنا أن غلاماً شاباً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسط جماعة من أصحابه، فقال: يا رسول الله إئذن لي في الزنا!

فاستنكر الحاضرون منه هذا الطلب الشاذ، وصاحوا به: مه. أي اسكت ودع مثل هذا الكلام السيئ.

فلم يرض رسول الله ﷺ بمجابهتهم له، فالشاب يعيش ضغطاً غريزياً داخلياً، وهو غير ملتفت إلى كل ما يترتب على الزنا من مساوئ وأضرار، فلا بد من توجيهه برفق، لإقناعه بالابتعاد عن هذا العمل الحرام.

تقول الرواية: إنه ﷺ دنا منه وأقبل عليه يحاوره بهدوء، وقال له: أتحب الزنا لأمك؟

أجاب الغلام: لا

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لأختك؟

قال: لا

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. أتحبه لابنتك؟

قال: لا

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. فاكره لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحب لنفسك. ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر الغلام الشاب، ودعا له قائلاً: اللهم كفّر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه.

يقول الغلام: فقمت وما على وجه الأرض عمل أبغض وأكره إلى نفسي من الزنا[(١)].

الحوار مع الداخل

موقعه الديني والسياسي كنبي قائد، يخوّل له اتخاذ ما يراه مناسباً من القرارات، وخاصة في ساحة المعركة العسكرية، التي يمارس فيها القائد عادة صلاحياته الكاملة.

حيث يفترض أن يتعامل المسلمون مع رسول الله ﷺ باعتباره يستوحي أوامره ومواقفه من الله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[(٢)]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[(٣)].

(١) الطبراني: المعجم الكبير ج٨ ص١٨٣.
(٢) سورة النجم آية ٣ ـ ٤.
(٣) سورة الحشر آية ٧.

لكن الرسول ﷺ لم يعتبر هذه الموقعية مبرراً لتجاهل وتجاوز آراء صحابته المحيطين به، فقد أمره الله تعالى بالتشاور معهم، يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[١]، وكان من أكثر الناس مشاورة لأصحابه مع وضوح القضايا أمامه، وعدم حاجته إلى رأي الآخرين، لكنه يريد إرساء هذه المنهجية، وتثبيت القناعة والاطمئنان بمواقفه في النفوس.

روى سعيد بن منصور وابن المنذر عن الحسن في الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، قال: قد علم الله أن ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد ليستن به من بعده.

وروى ابن جرير وابن خيثمة عن قتادة قال: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ في الأمور، وهو يأتيه الوحي من السماء، لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً، وأرادوا بذلك وجه الله تعالى عزم عليهم على أرشده.

وروى ابن أبي حاتم والخرائطي عن أبي هريرة قال: ما رأيت من الناس أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[٢].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٢) الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد ج٩ ص٣٩٨.

وإذا حصل اعتراض من بعض أصحابه على قرار من القرارات، أو موقف من المواقف، لم يكن ﷺ يشهر أمامهم سلاح الإلزام بالخضوع لأمره، كما هو مقتضى إيمانهم به، ولا كان يتهم نواياهم تجاهه، بل كان ينفتح عليهم، ويصغي لاعتراضاتهم، ويتقبل عتابهم، ويحاورهم بكل محبة وشفافية، حتى يتضح لهم الصواب، وتطمئن نفوسهم بما فعله ﷺ.

عطاياه من غنائم حنين

وأمامنا كنموذج لنهج النبوة، ما حصل في أعقاب غزوة حنين، حول عطايا رسول الله ﷺ من الغنائم، لزعماء قريش حديثي الإسلام، وعتاب الأنصار على ذلك، وكيف تعامل رسول الله ﷺ مع ذلك الموقف؟

بعد فتح مكة في شهر رمضان سنة ٨ هـ، حشدت قبائل (هوازن) عشرين ألف مقاتل للزحف على مكة، ومواجهة الإسلام والمسلمين، وهوازن من أعظم القبائل وأكثرها خطراً في الجزيرة العربية، بعد قريش، وقد أقلقها هزيمة قريش أمام المسلمين، ورأت نفسها في موقع التهديد والخطر، لذلك بادر زعيمها مالك بن عوف لإعلان الحرب على المسلمين، وعبأ جيشه، وألزم كل واحد منهم أن يُخرج معه أهله وماله، ليكون الجنود أكثر حماساً في المواجهة، وعلى أثر ذلك تحرك الرسول ﷺ بجيشه من مكة، لمواجهة هوازن، وحدثت المعركة في وادي حنين، في شهر شوال سنة

٨هـ، وكان عدد جيش المسلمين ١٢ألف مقاتل، وأصيب الجيش الإسلامي بنكسة في بداية المعركة، بسبب كمائن جيش هوازن، لكن ثبات رسول الله ﷺ والثلة التي صمدت معه، أعادت المبادرة بيد المسلمين، وانتصر الجيش الإسلامي بعد شدة وعناء، وتحصّل على غنائم كثيرة، لأن مقاتلي هوازن دخلوا المعركة بكل أموالهم وممتلكاتهم، وذكر المؤرخون من أرقام الغنائم ٢٤٠٠٠ بعيراً، و٤٠٠٠٠ شاة، وكمية كبيرة من الفضة.

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بين المقاتلين لكل واحد من المشاة سهم واحد، هو أربعة من الإبل، أو أربعون من الغنم، ولكل واحد من الفرسان ثلاثة أسهم، هي اثنا عشر من الإبل، أو مئة وعشرون من الغنم.

وحسب التشريع الإسلامي فإن خمس الغنيمة يكون تحت صرف رسول الله ﷺ، فكان مقدار الخمس ٤٨٠٠ بعيراً، و٨٠٠٠ شاة.

هنا رأى رسول الله ﷺ أن يجزل العطاء لبعض زعماء قريش الذين التحقوا بالجيش الإسلامي بعد فتح مكة، جذباً لقلوبهم، وإزالة لآثار ما شعروا به من هزيمة بفتح مكة.

فأعطى أبا سفيان بن حرب ١٠٠ من الإبل و٤٠ أوقية من الفضة، ومثل ذلك لولده يزيد بن أبي سفيان، ولولده معاوية، وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل، ومثل ذلك للنضير ابن

الحارث، وأسيد بن حارثة، والحارث بن هشام، وصفوان ابن أمية، وغيرهم.

ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان بن حرب، كان أول من سأل رسول الله ﷺ منحه من الغنائم، فقد دخل على رسول الله ﷺ، وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريشاً مالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله. قال: يا بلال، زن له أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه.

قال ﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني معاوية يا رسول الله.

قال ﷺ: زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: إنك لكريم فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرا.

وحدث الواقدي قال: قال حكيم بن حزام: سألت رسول الله ﷺ بحنين مئة من الإبل، فأعطانيها، ثم سألته مئة أخرى فأعطانيها، ثم سألته مئة ثالثة فأعطانيها.

ويذكر أصحاب السير والمغازي أن الرسول ﷺ أعطى أولاً العباس بن مرداس السلمي سيد بني سليم، أربعاً من الإبل فقط،

فعاتب الرسول ﷺ بشعر، فلما بلغ الرسول ﷺ عتابه، لم يغضب، ولم يحاسبه على ما فاه به من عتاب، بل قال: اقطعوا لسانه عني، أعطوه مئة من الإبل.

هذا العطاء السخي من الرسول لزعماء قريش، الذين لم يمض على حربهم له ومناوأتهم للإسلام، إلا شهر من الزمن، أثار كثيراً من التحسس في نفوس الأنصار من الأوس والخزرج، والذين استقبلوا الرسول ﷺ حينما هاجر إليهم في المدينة، وبايعوه منذ العقبة الأولى، على الطاعة والحماية، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الدعوة، وهم الآن يرون أن نصيب كل واحد منهم من الغنيمة كمقاتلين، في حدود أربعة إلى اثني عشر من الإبل، بينما ينال رجالات قريش هذا العطاء الوافر!!

فظهرت في أوساطهم مقولات فيها عتاب وتساؤل، تجاه ما فعله رسول الله ﷺ، حتى قال بعضهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، أما حين القتال فنحن أصحابه، وأما حين قسم الغنائم فقومه وعشيرته، إن كان هذا من الله صبرنا، وإن كان هذا من رسول الله استعتبناه.

وقال آخرون: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وعلّق بعضهم بقوله: والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا لتقطر من دمائهم، والغنائم تقسم فيهم.

وقال بعض آخر: إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطي الغنيمة غيرنا.

فدخل سعد بن عبادة، سيد الخزرج، على رسول الله ﷺ، وأبلغه ما يجد الأنصار في نفوسهم، بسبب ما أعطى من غنائم لسادات قريش، وزعماء القبائل الأخرى. فقال سعد: إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء؟

قال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

فقال سعد: ما أنا إلا كواحد من قومي، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا؟

حوار مع الأنصار

تجاه هذا الموقف لم يستخدم رسول الله ﷺ منطق الفرض، باعتباره مارس صلاحياته المشروعة، كنبي يجب قبول أمره، وكقائد يجب أن يطاع، وهو إنما تصرف في الحصة التي وكلها الله إليه، خمس الغنيمة. وبذلك من حقه هو ﷺ أن يعاتب المعترضين، ويوبخّهم على تشكيكهم في قراراته، ويدعوهم إلى التوبة والاستغفار.

لكنه ﷺ التزم نهجه النبوي القائم على أساس الحوار والإقناع، لإيضاح الموقف أمام الأنصار المعترضين، وتبيين المبررات الكفيلة بإقناعهم، وإرضاء نفوسهم.

لقد طلب ﷺ من سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار وحدهم، دون أن يحضر أحد من المهاجرين، فاجتمعوا في خيمة كبيرة، فدخل عليهم ﷺ، وألقى كلمة قال فيها: يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله؟! وعالة فأغناكم الله؟! وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟!

قالوا: بلى. الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله، ولرسول الله المنُّ والفضل؟

قال: والله لو شئتم قلتم فصدقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.

وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار لشيء من الدنيا تألّفت به قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟

إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم

وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟

فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً[١].

هكذا عالج رسول الله ﷺ الموقف، بالتخاطب معهم، وشرح مبررات قراره، وبالاعتراف لهم بالفضل والمكانة، وإلفاتهم إلى المكسب السياسي والمعنوي الكبير لتثبيت المدينة عاصمة للكيان الإسلامي، حيث لم يرجع الرسول ﷺ إلى مكة بعد فتحها ليتخذها مقراً له، رغم أنها بلده، ورغم حنينه إليها، ووجود الكعبة فيها.

المنهج السليم

ومن يقرأ سيرة المصطفى ﷺ يرى أن الحوار كان منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، استجابة لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[٢].

---

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى ج٩ حنين ص١٧٠، ١٨١.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

ودراسة هذا المنهج من خلال السيرة النبوية، تبرز جانباً من عظمة شخصية رسول الله ﷺ، وتعطينا أروع الدروس فيما يجب أن نلتزم به من أسلوب الدعوة إلى الله، فبعض الدعاة يسيئون إلى الدعوة، بفظاظتهم وقسوة خطابهم، وهم ينفّرون الناس من الدين، بدل أن يستقطبوهم إليه.

وفي هذه الأيام وحيث نواجه حملة إعلامية ثقافية على المستوى العالمي، لتشويه سمعة الإسلام، واتهامه بالعنف والإرهاب، فإننا بحاجة إلى عرض مفاهيم الدين وحقائقه، من خلال سيرة رسول الله ﷺ، والتذكير بالمعالم المشرقة من حضارة الإسلام.

معاناة الرسول(ص) في تبليغ الرسالة

يبدي كثير من الباحثين الأجانب غربيين وشرقيين دهشتهم لضخامة الإنجاز الذي حققه الرسول محمد ﷺ، في مدة قياسية، ومساحة زمنية محدودة، فما كاد يمر على بدء الدعوة عقد ونصف من الزمن، حتى تمكن رسول الله ﷺ من بناء مجتمع إيماني متماسك، وإقامة كيان رسالي متحضر، على أنقاض حياة جاهلية قبلية متخلفة. لينطلق بعد ذلك مارد الحضارة الإسلامية المشرقة.

وفي الحقيقة فإن النشاط الجاد المكثف، والجهد الدعوي الكبير، الذي بذله رسول الله ﷺ، هو الذي اختصر أمام الرسالة مسافة الزمن، وضاعف من سرعة خطوات حركتها المباركة. وذلك بتوفيق الله تعالى ورعايته.

فبعد نزول الوحي عليه ﷺ أصبح في حركة دائبة، وسعي متواصل، لم يعرف للراحة طعماً، ولم يجد التعب والكلل إليه سبيلا. وتقلّص حتى نومه في الليل، استجابة لأمر ربه تعالى الذي

حمله المسؤولية الخطيرة الثقيلة وخاطبه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1].

وقد روي عن السيدة خديجة أم المؤمنين عليها السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل عليه الوحي، ترك كل راحة، وكان يدأب ليل نهار في العبادة والعمل، فقلت له: يا رسول الله ألا تستريح ألا تنام؟ فقال: لقد مضى عهد النوم يا خديجة[2].

وكانت قضية الرسالة تأخذ من نفسه صلى الله عليه وآله وسلم مأخذاً كبيراً، حتى دعاه الله تعالى إلى الرأفة بنفسه، والشفقة عليها، وخاطبه تعالى بقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾[3].

الراحة والرخاء قبل البعثة:

كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة يعيش حياة راحة ودعة، فهو ينتمي إلى أفضل أسرة في قريش، ويحظى بحب شيوخ أسرته واحترامهم، فهو قد ولد يتيماً، حيث مات أبوه عبدالله في ريعان شبابه، وبعد ذلك فقد أمه آمنة بنت وهب، مما جعله محل عطف وشفقة زعيم الأسرة

---

(١) سورة المزمل: آية ١ ـ ٥.
(٢) الشيرازي: السيد محمد، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص١٤٧.
(٣) سورة طه: آية ١ ـ ٣.

جده عبد المطلب عليه السلام، ثم موضع تقدير خلفه في الزعامة أبي طالب عليه السلام، إضافة إلى أن حسن سلوكه ومكارم أخلاقه، قد أكسبته الاحترام العام في المجتمع، حيث لم يلحظ عليه أحد أي ميل أو نزوع لنزق الشباب آنذاك وطيشهم، ولم تجتذبه أية ممارسة من العادات والتقاليد الوثنية الجاهلية، وما سُجّل عليه خلل في قول، ولا خطل في فعل، فأصبح يعرف وسط مجتمعه بالصادق الأمين.

وزواجه من خديجة بنت خويلد عليها السلام، أثرى وأعز امرأة في قريش، والتي كان الرجال يتاجرون في أموالها، وكان الزعماء يطمحون للاقتران بها، هذا الزواج والذي جاء برغبة منها، وفّر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أجواءً هانئة، وعيشة مستقرة وادعة.

حيث أغدقت عليه خديجة حبها وحنانها، ووضعت تحت تصرفه كل ثروتها وإمكاناتها.

هكذا كانت حياته قبل البعثة، استقراراً نفسياً، وسعادة عائلية، ورخاءً اقتصادياً، واحتراماً وسمعة اجتماعية.

معاناة التبليغ:

وما أن صدع محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسالة ربه، وأعلن ثورته الإلهية على واقع الوثنية والشرك، حتى انقلبت أوضاع حياته رأساً على عقب، حيث لم يكن من السهل على أولئك الناس الذين ألفوا

عبادة الأصنام، ونشأوا على الوثنية والفساد، أن يتخلوا عن عاداتهم وممارساتهم المتجذرة في حياتهم، كما أن الزعامات ومراكز القوى كانت تريد الحفاظ على نفوذها ومكانتها، وترى في الرسالة الجديدة نسفاً لمواقعها، وتهديداً لمصالحها.

من هنا فقد انتفض الجميع في مكة رفضاً لرسالة محمد، ومعارضة لدعوته، وعداءً ومناوءة لشخصه ووجوده. وشنّوا عليه حرباً ضارية شاملة، فقد اتهموه بالكذب والجنون والسحر، بعد أن كانوا يسمّونه الصادق الأمين، وصاروا يواجهونه بالسخرية والإهانة والتحقير، بعد أن كان معززاً محترماً في أوساطهم، وتجرأ عليه حتى جهالهم وسفهاؤهم يؤذونه حينما يمشي في الطريق.

ثم تطوّر عدوانهم إلى حالة فرض الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الاجتماعية، عليه وعلى أسرته بني هاشم، فاتفقت قبائل قريش وتعاهدت على ذلك، وكتبوا صحيفة علقوها في جوف الكعبة، بأن لا يُنكحوا أحداً من بني هاشم، ولا يَنكحوا منهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

ولجأ محمد ﷺ وأسرته إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان والحصار الاقتصادي والاجتماعي، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون بها جوعهم.

روى البلاذري عن ابن عباس قال: حُصِرنا في الشعب ثلاث

سنين، وقطعوا عنا المِيرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى يرجع، حتى هلك من هلك.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش[١]. حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرأوا به غوائل الجوع، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضورون من الجوع[٢].

صور من المعاناة:

من أصعب ألوان المعاناة على الإنسان، إذا كان محترماً عزيزاً وصاحب سمعة في مجتمعه، أن تتعرض صورته للتشويه، وأن تتحطم سمعته ومكانته عند من حوله، وهذا ما واجهه رسول الله ﷺ من المشركين، فقد صبوا عليه صنوف الأذى والإهانة، فتحملها في سبيل الله صابراً محتسباً، حتى قال ﷺ ـ ما روى عنه أنس بن مالك ـ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيتُ في الله»[٣].

ولننقل بعض صور المعاناة التي تحملها رسول الله ﷺ.

(١) الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٢ ص٣٧٨.
(٢) مهران: د. محمد بيومي، السيرة النبوية الشريفة، ج١ ص٢٣٠.
(٣) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٨١٨.

التضور جوعاً:

كان رسول الله ﷺ غنياً يتصرف في أموال زوجته خديجة كما يشاء، لكنه أنفقها في سبيل الله، كما عاش حالة الحصار والمقاطعة من قبل المشركين، لذلك كانت تمر عليه فترات من الزمن وهو يتضور من الجوع، ولم يكن يتوفر له في اليوم من الطعام إلا مقدار بسيط يمكن إخفاؤه تحت الإبط، كما روي عنه ﷺ أنه قال: «لقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»(١).

أذى عمه أبي لهب:

كم هو صعب على الإنسان إيذاء الأقربين له؟ وكم هو مؤلم أن يشهّر به ويعيبه أرحامه؟ هكذا كانت حال رسول الله ﷺ مع عمه أبي لهب.

عن طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمرّ وعليه جبة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى وهو أبو لهب(٢).

---

(١) المصدر السابق، حديث رقم ١٦٦٧٨.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٣٥٥٣٨.

إهانة وأذى:

عن منيب بن مدرك بن منيب عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، فأقبلت جارية بعُس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية! اصبري ولا تحزني على أبيك غلبةً ولا ذلاً[١].

محاولة لخنقه من رقبته:

روى البخاري وابن المنذر وأبو يعلى والطبراني عن عروة قال: سألت عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عُقبة بن أبي مُعيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقاً شديداً[٢].

ضربوه حتى أُغمي عليه:

روى البزار وأبو يعلى برجال الصحيح عن أنس(رض): لقد ضربوا رسول الله حتى غشي عليه. فقام أبو بكر ينادي: ويلكم

(١) المصدر السابق، حديث رقم ٣٥٥٤١.
(٢) الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد، ج٢ ص٤٣٦.

أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون[١].

سخرية وتحقير:

روى الشيخان والبزار والطبراني عن عبدالله بن مسعود(رض) قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور (كرش ناقة مذبوحة) نحرت بالأمس قريباً، فقالوا: من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط، فجاء به فقذفه على ظهره، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض، والنبي ﷺ ما يرفع رأسه، وجاءت فاطمة عليها السلام، فطرحته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، رفع رأسه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بالملأ من قريش»[٢].

يوم الطائف:

ولعل من أشد الأيام وأصعبها على رسول الله ﷺ هو يوم الطائف، حيث سافر إليها من مكة، بعد أن تصاعدت عليه

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٤٣٧.

الضغوط، وأحكم حوله المشركون الحصار والمناوءة، واستفردوا به حينما مات ناصره والمحامي عنه عمه أبو طالب(، وكذلك ماتت زوجته الحنون خديجة، فأصبح مكشوفاً أمام أعدائه، يحيط به الأذى من كل جانب، لذلك سافر إلى الطائف علّه يفتح ثغرة في جدار الحصار، أو يسجّل اختراقاً يعزز وضعه وسط قريش.

وقصد هناك زعماء ثقيف أهم قبيلة في الطائف، وكانوا ثلاثة أخوة: عبد ياليل ومسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام، فرفضوا دعوته بجفاء وغلظة، وقال له أحدهم: هو يمرط (أي يمزّق) ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك!

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك!

فلما يئس من قبولهم الإسلام، طلب إليهم أن يجيروه ويحموه لكي يدعو الناس وهو آمن، فرفضوا طلبه أيضاً.

فقال لهم أخيراً: إذا فعلتم فاكتموا علي. لأنه كره أن تعلم قريش بما حصل فتشمت به وتزداد جرأة عليه.. فلم يجيبوه حتى لهذا الطلب البسيط، بل أغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

قال ابن عقبة: وقفوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

زاد سليمان التيمي: أنه ﷺ كان إذا اذلقته الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه ويقيمونه فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قال ابن عقبة: فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً، فعمد إلى حائط من حوائطهم (أي بستان) وأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبال، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[١]، هذه بعض الصور من معاناة رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة.

الأسوة والقدوة:

تلك كانت يوم كان في مجتمع قريش بمكة، وبالهجرة إلى

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٨.

المدينة دخل الرسول ﷺ مرحلة جديدة ذات ألوان أخرى من المعاناة، حيث شنت عليه الحملات العسكرية، وخاض المعارك والحروب، وواجه فتن المنافقين، ومؤامرات اليهود، وغلظة الأعراب وجفاف أخلاقهم، ولا يتسع المجال الآن للحديث عن العهد المدني.

لكن ما يجب التأكيد عليه، أن نتأسى برسول الله ﷺ ونقتدي به، في تحمل مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى.

إن مجتمعاتنا تواجه الآن أخطاراً بالغة تتمثل في تسلل أفكار الانحراف، وثقافة الفساد، وأنماط السلوك الإجرامي، لقد أصبحنا نسمع عن تورّط العديد من أبناءنا وبناتنا في مشكلة تعاطي المخدرات والإدمان عليها، حتى اضطرت الجهات الرسمية إلى إقامة مستشفيات ومؤسسات خاصة لإنقاذ المبتلين بهذا المرض الخطير الفتاك، وتعلن الجهات الحكومية المعنية بين فترة وأخرى عن ضبط كميات من هذه الأدواء الخبيثة، فقد أعلن المدير العام لحرس الحدود السعودي أن قوات حرس الحدود تمكنت خلال العام ١٤٢١هـ من مصادرة نحو طنين من الحشيشة وآلاف الحبوب المخدرة، إضافة إلى ٢٢٨٠٠ زجاجة خمر[١] وبالتأكيد فإن ما يكتشف ويصادر هو الجزء البسيط، ذلك لأن منطقتنا الآن مستهدفة من قبل تجار المخدرات وعصابات الإجرام، لما في أيدي أبناءها

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٧ صفر ١٤٢٢هـ.

من سيولة نقدية يجعلها سوقاً استهلاكية مغرية، ولما يطمح إليه الأعداء من تمييع شعوب هذه المنطقة، لتسهيل هيمنتهم، وتسخيرها لخدمة مصالحهم السياسية والاقتصادية.

وهذا ما أكده أحد المسؤولين في منظمة (إنتربول) قبل فترة، وهو الشخصية البارزة في المنظمة واسمه (آر. سندرا. لينغام) حيث ألقى حديثاً في مؤتمر لمكافحة المخدرات عقد على هامش معرض (ميليبول قطر ٩٦) ودق ناقوس الخطر، وأعطى أرقاماً دلت على أن منطقة الخليج العربي، باتت مستهدفة بشكل مركز من قبل تجار المخدرات، وأن عصابات الإجرام تتطلع إلى هذه المنطقة بصفتها سوقاً جديدة مهمة[١].

وهناك تأثيرات هذا الانفتاح الإعلامي الكبير، حيث تضخ القنوات الفضائية، إلى أذهان ونفوس المشاهدين في هذه المناطق، سيلاً هائلاً من المعلومات والانطباعات والاندفاعات التي تنتج أنماطاً منحرفة من السلوك والممارسات على المستوى الأخلاقي والاجتماعي.

بحيث أصبحنا نشاهد تصرفات شائنة من قبل بعض الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا، تجعل الإنسان يتساءل بحيرة: هل هؤلاء من أبناء هذا المجتمع؟

---

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١ رجب ١٤١٧هـ.

إننا جميعاً مطالبون بواجب الدعوة إلى الله، والقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح أبداً أن نراهن على الردع والإجراءات الرسمية فقط، فالمسألة بحاجة إلى الكثير من التخطيط والجهد المكثف للعمل في أوساط هذا الجيل الناشئ، لمساعدته على استيعاب تأثيرات هذا الانفتاح، والتحصن ضد آثارها السلوكية والأخلاقية.

إن المساجد والمؤسسات الدينية والاجتماعية يجب أن تنشط دورها، وتكثّف فاعليتها، وخصوصاً في فترة العطلة الصيفية، وإن علماء الدين والواعين من أبناء المجتمع عليهم أن يعلنوا حالة الطوارئ التربوية الثقافية لمواجهة هذه الأخطار الجارفة، ورجال المال والثروة لا بد أن يبذلوا أموالهم في سبيل الدعوة إلى الله.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أعطى كل وجوده وحياته، وتحمّل ضروب الأذى والمشاق في سبيل الدعوة إلى الله، فهل نبخل نحن بأنفسنا وأموالنا وأوقاتنا وسمعتنا وجاهنا؟

إن البعض يتلكأ عن تحمل أبسط المسؤوليات، والقيام بأقل المهام، حفاظاً على راحته، وحرصاً على جاهه وسمعته، فكيف إذاً ننال ثواب الله إذا لم نضَّحِ ونتحمل الأذى في سبيله؟ ثم كيف ندعي الانتماء إلى رسول الله ولا نحاول التأسي به؟

وماذا سيكون مستقبل أبناءنا ومجتمعنا ووطننا إذا لم نتصدّ لما يحيط بنا من الأخطار والمكاره؟

يحتاج الإنسان إلى هدي إلهي يوجهه في مختلف شؤون حياته، وقد تلقى الإنسان ذلك الهدي، على يد أشخاص اختارهم اللّه لكي يبلغوا رسالته للناس، هم الأنبياء.

وقد يظن البعض من الناس أن الإنسان مادام يملك عقلاً فهو ليس بحاجة إلى الأنبياء، لأن العقل يعطي الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر، وإدراك النافع من الضار، والحسن من القبيح.

وقد يدور هذا التساؤل في ذهن الإنسان المعاصر اليوم، كما كان مطروحاً في الماضي، غير أن طرحه اليوم، يتم بشكل أعمق وأقوى مما كان يطرح به في السابق، ذلك أن الإنسان استطاع أن يحقق بعقله إنجازات كبيرة، زادت ثقته بعقله، إلى الحد الذي يظن معه أنه وصل إلى ذروة الاعتماد على الذات، وأنه ليس بحاجة إلى جهة من خارجه.

والجواب على هذا التساؤل والتشكيك، هو نفسه الجواب الذي طرحه الإلهيون والموحدون على الماديين والمنكرين للنبوة، فالسؤال لم يتغير بل ازداد إلحاحاً، والجواب أيضاً لم يتغير بل ازداد وضوحاً.

فالبشرية تحتاج إلى الاتصال بالسماء والهدي الإلهي في مجالات ثلاث:

أولاً: الحاجة المعرفية:

فالعقل رغم ما يملكه من قدرات وطاقات، إلا أنه غير قادر على سبر كل الأمور، واختراق كل الحواجز والموانع، التي تقف في طريق حصوله على الكثير من الأجوبة المعرفية، التي يبحث عنها، والأمر المهم هو أن القضايا التي يعجز العقل عن تقديم الجواب الشافي لها، هي مسائل هامة، وكبيرة وخطيرة للغاية، تتعلق بمبدأ الإنسان ونشوئه، والغاية من خلقه وتكوينه، إلى جانب هذا النظام الكوني الذي يحيط به، والمستقبل الذي ينتظره فيما بعد..

فمن هي تلك القوة التي خلقتنا وكيف؟ وما هو طبيعية ارتباطنا بها وارتباطها بنا؟ وهذه أسئلة لا يستطيع العقل أن يجيب عليها..

نعم يمكن له أن يقرر أن له خالقاً، وأنه لم يخلق من العدم، وأنه لم يخلق نفسه بنفسه ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[١] غير أنه لا يستطيع أن يجيب على ما هو أكثر من هذا، ليس لخلل في ذات العقل، بل لأن اللَّه سبحانه وتعالى لم يعطه أكثر من هذه القدرة.

والوحي الإلهي هو الكفيل بالإجابة على هذه التساؤلات، ومن دون ذلك سوف يعيش الإنسان غير مدرك للعلة في وجوده، والغاية من بقائه، وسوف يؤثر ذلك حتماً على تحقيق سعادته، لأنه سوف يبقى مضطرباً قلقاً مشككاً، عله يثير هذه التساؤلات وهو غير قادر على الإجابة. وحتى لو توصل إلى حل لكل المشاكل العلمية والمعرفية الأخرى، وبقيت هذه المسألة الجوهرية بلا معرفة تروي غليله فيها، فسيكون ذلك القلق عاملاً من عوامل شقائه وتعاسته.

وأنّى لهذا العقل أن يصل بنفسه إلى تلك الحقائق؟ فهو لم يدرك بعد حتى كل المعلومات المادية المحسوسة التي يحتاج إليها، ويعترف العلماء الذين كانوا رواداً في اكتشافاتهم العلمية بذلك، فهذا اينشتاين يقول: «إن نسبة معلوماتي إلى مجهولاتي كنسبة هذا السلم الصغير في مكتبتي إلى مكتبتي الضخمة الكبيرة»، أي أن ما يجهل أكثر بكثير مما يعلم.

ولا أدل على هذه الحقيقة، من تدرج الإنسان في زيادة علومه، وتطور معلوماته وأفكاره، فالإنسان في كل يوم يكتشف

---

(١) سورة الطور: آية ٣٥.

علماً أو قانوناً علمياً جديداً، مما يعني أن هنالك أشياء أخرى سوف يكتشفها في المستقبل، وهو لا يعرفها الآن، والواقع أن الإنسان يتوصل غالباً في المراحل المتقدمة من العلوم إلى معلومات أهم من المعلومات القديمة.

وإذا كان لم يدرك كل الحقائق المادية، فكيف يحيط بالحقائق الغيبية، حول ابتداء مصيره وانتهاء مسيره؟ وهي المعرفة الضرورية التي يحتاجها قبل أية معرفة أخرى، كيف يدرك من الذي خلقه، ولماذا خلقه، وما هو مصيره..؟

ـ فإما أن يبقى الإنسان ضالاً عن هذه المعرفة الضرورية، والملحة عليه دائماً.

ـ وإما أن يتدخل اللّٰه اللطيف الخبير ليدل العباد عليه برسله، لأنه جل وعلا منزه عن أن يحرم عباده معرفة ضرورية لهم، ومنزه أيضاً عن أن يجعل لعباده الحجة عليه، فيعتذروا له يوم القيامة أنهم لم يطيعوه لأنهم لم يكونوا يعرفونه، ولا يعرفون المسائل الضرورية لهدايتهم إلى عبادته وطاعته، فأرسل اللّٰه الرسل حتى تكون له الحجة البالغة على خلقه ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[1]، وقال عز من قائل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

(١) سورة الأنعام: آية ١٤٩.
(٢) سورة النساء: آية ١٦٥.

إن النبوة تمد العقل بالحقائق الثابتة لهذا العالم الغيبي، فتهذب شعور الإنسان به وتعمقه، وتوقفه على الحقائق، وترسم له طريق الاتصال به.

ثانياً: الحاجة الاجتماعية:

الناس يعيشون مجتمعين مع بعضهم البعض، فلا بد لهم من نظام لإدارة شؤونهم، ولتقنين العلاقات فيما بينهم..

ووضع نظام اجتماعي شامل، يستلزم معرفة عميقة بالإنسان، في طبائعه وغرائزه وميوله، كما يستلزم معرفة دقيقة بالكون الذي يحيط بالإنسان، والحياة التي تحتضنه.

وأنى تتوفر هذه المعرفة والإحاطة إلا عند خالق الإنسان والكون؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[١].

من ناحية أخرى فإن تشريع نظام اجتماعي شامل، يحتاج إلى موضوعية وتجرّد، بحيث لا يكون المشرّع منحازاً لجهة، أو خاضعاً لمصلحة، أو متأثراً برغبة أو هوى.

وحينما يعتمد الإنسان على نفسه في وضع هكذا نظام، فإنه سيتخبط من تجربة فاشلة إلى أخرى، والتاريخ المعاصر يرينا كيف

(١) سورة ق: آية ١٦.

عانى نصف المجتمع البشري تقريباً، من التجربة الماركسية الشيوعية حتى انهارت، وماذا يعاني البشر الآن من الهيمنة الرأسمالية الغربية، والتي يدعي بعض منظّريها أنها نهاية التاريخ حسب تعبير (فرانسيس فوكوياما).

لذا يعتقد الإلهيون بحاجة البشرية إلى هدي اللَّه، الذي يمنحها نظاماً اجتماعياً يصلح شؤونها، ويوجه مسيرتها، إلى السعادة والتكامل.

ثالثاً: الحاجة الأخلاقية:

نظرة الإنسان للقانون الذي يحكمه، تختلف فيما إذا كان ذلك القانون من عند البشر أنفسهم، أو من لدن خالق البشر..

ففي حالة كونه قانوناً بشرياً، فإن الإنسان لن يشعر بوازع ذاتي عميق في الالتزام به، والامتناع عن مخالفته، ولهذا فقد يتحايل عليه ويمزقه، وهو يدعي أنه يطبقه.

أما حينما يكون القانون سماوياً، وأن الذي أمر به هو خالق الناس، فإن هذا القانون سيملك ـ حينئذ ـ قوة داخلية في نفس كل فرد، تدفعه إلى تطبيقه، لاعتقاده بأن الذي خلقه يراقبه في كل أعماله وتصرفاته، وأنه سوف يحاسبه على مخالفته.

وربما يعترض البعض على أن هذه الأخلاق سوف تكون حينئذ سلوكاً مفروضاً على الإنسان، بفعل قوة عليا هي اللَّه جل

وعلا، بينما ينبغي أن يكون الفعل الأخلاقي مجرداً عن أي ضغط وإكراه.

غير أن هذا الاعتراض غير دقيق، لأن الفعل سوف ينطلق من إرادة الإنسان الحرة، أما أنه تعالى يثيب على الخير، ويعاقب على الشر، فهذا هو مقتضى العدل، وكون الإنسان مختاراً.

وما تهدف إليه القوانين والتشريعات السماوية، هو أن يجعل الإنسان من نفسه مستودعاً للأخلاق الفطرية النقية، التي تنسجم مع الإيمان والعقيدة، وأن تكون العقيدة هي الدافع والمحرك للأعمال الخيرة، وأن يكون السلوك الحسن انعكاساً لحسن الاعتقاد، ونقاء الإيمان.

تطبيق الشريعة:

أن يتساءل الإنسان عن مدى الحاجة إلى الأنبياء، فذلك تساؤل طبيعي، يقوده إلى الإيمان بالأنبياء، إن استخدم عقله وتفكيره بشكل موضوعي ومنطقي.

أما أن يتساءل المسلم، والمؤمن بالرسول، والمقر برسالته، عن الحاجة إلى تطبيق الشريعة التي جاء بها الرسول من عند ربه، فذلك تساؤل غريب عجيب!!

لأن معنى الإقرار والإيمان بالرسول، حينما يقول المسلم: «أشهد أن محمداً رسول اللّه» هو الخضوع لشريعته وتطبيق رسالته

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[1]. فما دمت تؤمن بأنه رسول، وأن ما جاء به هو رسالة من اللَّه إليك، فكيف يجوز لك أن تتساءل أو تشكك أو تتردد في تطبيقها؟.

إن من المؤسف حقاً أن نسمع بين فترة وأخرى أن بعض المسلمين في البلاد الإسلامية يتحفّظون على تطبيق الشريعة.

كما أن من المؤسف أن يصبح مجرد الدعوة إلى تطبيق الشريعة في بعض البلدان الإسلامية، جريمة تعاقب عليها الدولة، وأن تمنع بعض البلدان الإسلامية بعض المظاهر الإسلامية، كالحجاب وإقامة الشعائر الإسلامية، وأن تعد بعض هذه الأمور أو غيرها جريمة يدان بسببها الإنسان، كما هو الحال في تركيا ـ مثلاً ـ وهي دولة إسلامية، بل كانت قبل زمن قصير عاصمة الخلافة الإسلامية، وأكثرية شعبها مسلمون، لكن الدعوة إلى تطبيق الإسلام فيها تعتبر جرماً، ولبس الحجاب في المؤسسات الرسمية جريمة، يعاقب عليها، كما حصل للنائبة (مروة قاوقجي)!

إن لرفض بعض الناس فكرة تطبيق الشريعة أسباباً من أهمها:

السبب الأول: عدم وضوح الشريعة ونظامها بالشكل الكافي، وما هو النظام الإسلامي الذي نريد أن نطبقه؟ ما هي معالمه ومرتكزاته؟ وما هي حدوده وقيوده؟ أكثر المسلمين اليوم ـ للأسف ـ

---

(١) سورة الحشر: آية ٧.

لا يعرفون تفاصيل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولا يستوعبون إلا بعض الأحكام والتشريعات العبادية فيه، بينما لا يشكل هذا الجانب سوى جزء من نظام وقانون متكامل، يفي بحاجات الإنسان كاملة، وليس الجانب العبادي وحده، وفي كثير من الأحيان ترتبط فكرة تطبيق الشريعة في أذهان الناس، بمجرد إقامة الحدود والعقوبات على المحرمات، وذلك أمر خاطئ فالحدود والعقوبات جزء من نظام متكامل.

ولو أمكننا أن نعرض ونبين للعالم النظام الإسلامي بأكمله بأسلوب مناسب، لما أثيرت هذه التساؤلات ولأخذت الشريعة موقعها في المجتمعات الإسلامية والبشرية.

السبب الثاني: التطبيقات المشوهة للإسلام في عهود تاريخية سابقة، حيث استغل الإسلام كغطاء لممارسات منافية لحقوق الإنسان، وللعدالة الاجتماعية، بل وبعض التطبيقات المعاصرة التي مورست باسم الإسلام ألحقت بصورته أذىً وتشويهاً كبيراً، كما يحصل في أفغانستان.

ورغم أن هناك نماذج مشرقة وطيبة لتطبيق الإسلام في الماضي والحاضر، غير أن الأنظار تتجه للاحتمال الأسوأ، والنموذج الأبرز والأغلب.

لذا يخشى الكثيرون أن يكون تطبيق الإسلام، نوعاً من الرجوع إلى الوراء، واستعادة التجارب القاسية في التاريخ، أو محاكاة الحالات السيئة في الوقت الحاضر.

السبب الثالث: الانهزام أمام الفكر المادي والغربي:

فذلك الفكر متسلح بالعلم والتكنولوجيا، والتطور المدني، أما المسلمون فيعيشون حالة متخلفة، وعندما يفكر بعض الناس في واقع التخلف الذي يعيشه المسلمون، يتصور واهماً، أن الحل هو في التخلي عن الدين والشريعة!!

وللإعلام الأجنبي، والثقافة الغربية، دور في نشر هذا التصور وتكريسه في الأذهان، خاصة وأن أقلاماً من أوساط المسلمين تبنت الترويج والتبشير بالفكر الغربي.

فما هو الحل إذن؟

أولاً: لا بد من فتح باب الاجتهاد، من أجل اكتشاف وكشف أنظمة الإسلام وبرامجه، وتجاوز هذا الركام من التصورات المشوهة الخاطئة، وتوضيح مفاهيم الإسلام، وتبيين الأنظمة والمناهج الإسلامية، في مختلف مجالات الحياة.

ثانياً: ينبغي أن نقوّم تجاربنا التاريخية والحالية بكل جرأة وشجاعة وتجرد، وأن نوضح للعالم وللأجيال، الجوانب المضيئة منها، والتي تمثل الإسلام، ونعترف بالجوانب المظلمة فيها والتي هي مخالفة للإسلام ولا يرضاها، وأن لا نتبنى كامل التجارب السابقة وننسبها للإسلام.

ثالثاً: أن نتسلح بمعنوياتنا الرفيعة، وأن لا ننهزم أمام أي تشويه، ونتخلى عن مبادئنا مع أبسط مواجهة وتحد..

إن علينا أن نستعيد قوتنا المعنوية الكبيرة، وأن ندرك أن سبب تخلفنا ليس هو تطبيق الإسلام، وإنما على العكس من ذلك.. إن سبب تخلفنا هو ترك العمل بالإسلام!!

وإلا فديننا هو دين الحق وهو سبيل الخلاص للبشرية، لإنقاذها من الويلات والمآسي، وكما قال الشاعر:

يقولون في الإسلام ظلم بأنه ... يصد بنيه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت ... أوائله في عصرها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم

المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٥٧م. .

٣ ـ ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

٤ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥ ـ أمين: أحمد، فجر الإسلام، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٩م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٦ ـ باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، الطبعة الثامنة ١٩٨٥م، المكتبة السلفية، القاهرة.

٧ ـ البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩٩م.

٨ ـ برنامج الأمم المتحدة: الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، المملكة الأردنية الهاشمية.

٩ ـ برنامج الأمم المتحدة: الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢، المملكة الأردنية الهاشمية.

١٠ ـ الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١ ـ جاد المولى: محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

١٢ ـ الحياة: جريدة يومية، لندن.

١٣ ـ دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول(ص)، تحقيق عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت.

١٤ ـ السجستاني: الحافظ أبوداود، سنن أبي داود، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٥ ـ الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن.

١٦ ـ الشيرازي: السيد محمد، السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، مؤسسة البلاغ، بيروت.

١٧ ـ الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨ ـ الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٩ ـ الطبراني: المعجم الكبير، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٠ ـ الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، الطبعة الخامسة ١٩٨٩م، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢١ ـ القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار المغني، الرياض.

٢٢ ـ الكيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسة، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٢٣ ـ المتقي الهندي: علي، كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٤ ـ المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة المصححة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥ ـ مهران: د. محمد بيومي، السيرة النبوية الشريفة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠م.

٢٦ ـ الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٧ ـ هارت: مايكل، دراسة في المائة الأوائل، ترجمة أسعد عيسى ـ أحمد غسان سبانو، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م، دار قتيبة، دمشق.

٢٨ ـ الواقدي: محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازي، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

الفهرس

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية

ص.ب: 1322 القطيف 31911

هاتف: 8555210 3 966 +

فاكس: 8512600 3 966 +

الموقع على الإنترنت: www.saffar.org

البريد الإلكتروني: office@saffar.org